تم التحميل من
موقع وجـــروب
عصير الكتـــــب

www.FB.com/groups/Book.juice
www.book-juice.com

رواية

ما فوق الدول

(تحقيق الموتى)

الكتاب الأول

حسن الشواف

إهداء إلى

أمي وأبي وإخوتي.. إلى عائلتي.. تعجز الكلمات عن التعبير في سطور الإهداء؛ لذلك لا أملك إلا أن أهدي إليكم مولدي الأدبي الأول

حسن

إهداء خاص

لسيدي القارئ، أنت من دفعت جزءًا من مالك ووقتك لتقرأ كلمات كاتب لا تعرفه، باختلاف أسباب اختيارك، أتمنى أن تعبر –بالقراءة – صفحات الكتاب بسلاسة لها رونقها، وأن تجد بين ضفتي كتابي متعة واستفادة ورحلة مختلفة مشوّقة تنسجها تصورات عقلك، في النهاية لا أملك إلا أن أقول.. شكرًا لك

حسن

محمد الشواف

ملحوظة هامة :

جميع أفكار هذه الرواية نابعة من خيال الكاتب، ولا تمتّ بصِلَة لأرض الواقع إلا ببعض النقاط القليلة، ولم يثبتها العلم إلى الآن.

مقدمة :

"إن كنت تمسك بهذه الورقة الآن فأنت بالتأكيد تحت الأرض.. وقد حفرت قبرك بيديك بالمعنى الحرفي للكلمة وتستدعي موتك، فاعلم أن بين يديك حقيقة تُخفَى عن جميع البشر.. واعرف أهمية هذه الورقة وما تخبئه..

ونصيحة منِّي، عش كباقي البشر همّهم الأكبر الطعام والشراب والمتعة الجنسية.. من يكلمك الآن هو ضمير الكاتب، لا مكان للمثالية مع هؤلاء فهُم لا وصف بشري يمكن وصفهم به.. فكّر جيدًا.. وإن أردت الحقيقة، فابحث عنها في تلك الكلمات..وصدقني لا أخدعك ولا أبثّ فيك الحيرة فهذا اللغز الذي يؤدي إلى الحقيقة يجب أن يظهر للبشر ويختفي

عنهم".

وتحتها كتبت كلمات أشبه بطلاسم غير مفهومة:

"ورقة بيضاء ليست بعذراء تعرف قيمة ما تخبئه، تتأرجح تحت أمواج حائرة لذلك تختبئ عن أعماق كل منا.. ابحث عنها بداخلك تجد ما تسمو النفس إذا نالته؛ الحقيقة "

الفصل الأول : البداية

(بداية الحقيقة نهاية كل شيء مجهول)

(١)

المشاعل تزيّن هذا الحشد الكبير من الناس، لكن الحشد هذا لا يزين الأرض بأي خيرٍ كما المشاعل المتألّقة بأيديهم.

تهليلات ..

تكبيرات..

سباب..

اتهامات..

الدعوة بالموت..

كما تسمع معي؛ إنها أشياء مشتركة بين أللسنة هذا الحشد الذي يبدو من ملابسه البسيطة أنهم والريف من طينة واحدة، يحاصرون رجلًا ملابسه ممزقة من انهيال الحشد عليه ضربًا بالعصا وبآلات حادة تكاد أن تهلكه لو زرعت إحداها في جسده. كان يحاول الإفلات منهم بأي طريقة، ولكنهم كانوا يفتحون له ممرات بينهم حتى يلوذ بالهرب اتجاهها ليوصلوه في النهاية حيًّا للبيت الذي أمامنا الآن.

أمسكه رجلان ضخما الجسد وانتزعاه من الحشد بصعوبة، فتحا باب البيت ودفعاه إلى الامام بقوة وأدخلاه البيت المنشود، وقع على الأرض وأمامه شخصان؛ الأول يرتدي عمامة وجلبابًا أزهريًّا، والثاني، يرتدي بالطو أبيض، قد يكفينا ذلك لنقول إنه طبيب ، وخلفهم ثلاثة رجال لا يختلفون عن الرجلين اللذين أدخلاوه البيت، قال الثاني :

- مرحبًا بك يا شوقي، لا تخف ستكون موتتك سريعة ولكني لم أجربها لأعدك بأنها لن تكون مؤلمة.

قال الرجل الأول بلهجة آمرة للرجال خلفه:

- أشعلوا النيران واسحبوه إلى الأعلى.

أوقفوا الرجل الذي عرفنا أن اسمه شوقي، وأسندوه إلى أن صعد سلمًا

يؤدي إلى سطح البيت الذي يتكون من طابق أرضي وسطح فقط.

حفرة دائرية بسطح البيت تحته شيء معدني دائري بنفس حجم الحفرة

اشتعلت بالدائرة المعدنية النيران حتى ارتفعت إلى أن تجاوزت حفرة

السطح ومعها انطلقت الصيحات والتهليلات من الحشد الذي ما زال يقف أمام البيت، شوقي والرجل الأول ذو العمامة والجلابية يقفان أمام الحفرة مباشرة، قال الرجل الأول مخاطبًا الحشد كأنه رئيس هذه البلدة :

"اليوم هو استمرار لرد الخطر عن بلدتنا، المخاطر والمؤامرات تريد أن تمنعنا عن هدفنا، هذا الساحر يريد أن يقضي على حياتنا السعيدة الهانئة، ولكن لم نجعله ينال منكم، حتى يخرس من يدعي أننا نستغلكم ويقول عليكم جهلاء لا فائدة منكم، من أجلكم سنجعل جسده يخمد هذه النيران الثائرة".

صاح الحشد في فرحٍ ونشوة، ضرب أحد الرجال رأس شوقي بعصا من الخلف بقوة فقد الوعي وسقط في الحفرة .

(٢)

ظلام يحيطني من كل مكان.. بالتأكيد هرب النور من هنا فلا طاقة تجعله يتحمل هذا المكان الغارز في الظلام.. أذهبت في رحلة إلى الفضاء وابتعلنا ثقب أسود!! اهذا العدم؟! أهذا الكون قبل الانفجار العظيم.. أتقبّل أن أكون في العدم، ولكن فليفكروا المعدومون سكان هذا العدم في تركيب بعض المراوح؛ حتى من يقوم بزيارتهم لا يسكب عرقًا مثلي، لا بالتأكيد أني لست في العدم فأذكر جيدًا أن لي أبًا وأُمًّا قد أنجباني وأني لم أُخلَق من العدم كنبتة شيطانية أو كمرشحين يظهرون قبل الانتخابات بأيام ثم يرجعون إلى عدمهم الخاص بكومبوند فاخر.

أتكون قد متّ.. وهذا الظلام الموحش ظلام قبرك.. تلك فكرة أسوأ من العدم ألف مرة، ولكني لا أشعر بضيق الكفن.. أو حتى رائحة تراب أو أصوات من يصرخون بجانبي، وهل الأموات يشعرون بشيء من الأساس!!

أتمنى أن لا تثبت لي أن هذا حقيقيّ الآن.

ما هذا الألم الذي بدأ يغزو رأسي.. متتابع ومدوي كغارات حرب مركَّزة على الرؤوس.. ولكن الألم أفضل بكثير من ألم الخوف من الموت.. إن تصورها يعد عذابًا روحيًّا خاصًا، يبدو أن مجرد التفكير في أي شيء يجعل الألم يتكئ بعصاه الغليظة على جسدي.

أيكون الألم نظامًا عربيًّا مستبدًا يمنع بالقوة من يريد أن يفكر ويعقل الأمور فلتذهب أيها الألم اللعين إلى الجحيم مع رفقاء الدرب المستبدين، انفض تلك الأفكار التخيلية من رأسك ودع عقلك يستنير بما لا ترى.

أوه صحيح، لماذا لم أفتح عيني، أحس بثقل جفنيَّ ولكن.. هل سأرى لو تغلبت على ثقلها!!

بدأ يفتح عينيه تدريجيًّا..

الظلام كما هو..

دقات قلبه تثور بصدره ..

الظلام هلاك إذا أصبح أبديًّا ..

ولكنه يرى، الغرفة هي المظلمة وانعكاس ضوء القمر على زجاج شرفة كان كأكسير الحياة في هذه اللحظة، تصاعدت أنفاسه متقطعة بابتسامته، تتنفس الصعداء، ودقات قلبه بدأت تهدأ كأمواجٍ تنتهي بلطفٍ على شاطئ صدره، بدأ ينضج فكره عن مكان تواجده، إنه في مستشفى، المحلول المثبت في ذراعه والسرير الطبي الذي يجثم عليه، الشيء القطني الملمس الموجود في مؤخرة رأسه، لكنه لا يذكر آخر شيء

مرَّ به، لا يذكر ما الذي أدى به إلى هنا، يستنزف تفكيره وذاكرته بدون جدوى.

لا بأس على الأقل يذكر من يكون، بدأ يلقِّن نفسه بياناته الشخصية ..

أنا شوقي.. نعم دكتور شوقي..

عائلتي تتكون من شخصين أمي وأختي بعد موت رب الأسرة "أبي"

منذ ما كنت في الخامسة من عمري.. أتذكر تلك الليلة جيدًا حتى بعد مرور اثنين وعشرين عامًا عليها.

أغمض عينيه..

ظهر الأسى والضجر على وجهه جليًّا.. وبدأ يكر خيط الذكريات ..

(١٥ إبريل عام ١٩٩٢م).. كان يوم عيد ميلادي الخامس.. تضايقت كثيرًا عندما أصرت والدتي على الذهاب للإسكندرية لعائلتها بعدما علمت أن ولادتها اقتربت، ولم ترد أن تحمِّل أبي أي معاناة يوم الولادة.. فاتفقا على الذهاب، أخبراني بهذا ولم يتذكر أحدٌ منهما عيد ميلادي، ركبنا السيارة متجهين إلى الإسكندرية.. بعد فترة ليست بالقليلة توقف أبي في الطريق عند محل ليبتاع شيئًا.. لم يهمني ماذا يشتري.. ثم رجع والدي إلينا واعطي والدتي كيسًا بلاستيكيًّا وعلبة مربعة ثم تحرك بالسيارة.. كان وقتها كل ما شغل بالي لماذا تلك السكين في يد والدتي، ماذا يريدان أن يفعلا.. لم أعرف متى حاوطنا هذا الضباب وكيف لم ارَ أو أسمع صوت البرق والرعد يضرب في السماء الممتلئة بالسحاب الممطر؟ كيف لم أنتبه لتقلبات الطقس من حولي.. أوقف أبي السيارة

على جانب الطريق الأيمن ومظاهر الدهشة من تقلُّب الطقس والحزن على عيد ميلادي المهمل منحوتة على وجهي.. ثم أدخَل أبي في كاست السيارة شريط.. ثم على صوت موسيقى أغنية ما أنسها في هذا اليوم!

" happy birthday "

ثم فجأة علت شرارة فوق كعكة عيد الميلاد، وحولها الشموع تزينها بشكل أبهجني بشدة ثم ظلّا يغنيان مع موسيقى الأغنية ويهنئانني. وقفت على المقعد الخلفي.. وتركت لي عنان القفز فرحًا عليها، ثم احتضنتني أمي في حنان.. وأهدى لي أبي هدية ملفوفة بشكل متقن ورائع.. فاتجهت إلى أبي وقبَّلته، فالسعادة الحق هي التي تهدم الحزن بداخلي، ثم تهدي إليَّ هدية تبني لي فرحًا عظيمًا.. أفزعني صوت طرق شديد -مِن رجل لم أميِّز ملامحه- على نافذة السيارة.. أنزل أبي زجاج السيارة ليعرف ماذا يريد!!

وكانت الأغنية لا تزال تملأ السيارة ضجيجًا، أتذكر الحوار الذي دار بينهما جيدًا.. كأن هناك من زرع برأسي مسجّلًا وسجل ما قيل.

- ننادي عليك من بعيد ولم تسمعنا.. بجانبك بعدة أمتار عربة غاز كبيرة قد انقلبت ويمكن أن تنفجر في أي وقت،

قال أبي في خوف ممزوج بالدهشة:

- ماذا !!

- ارحل عن هنا الآن ستموت..

أدار أبي السيارة بسرعة وانطلق.. ولكن هناك صوت انفجار دوي في المكان كله نيرانه حاوطتنا بشكل كامل.. رأيتها بتصوير بطيء لم أعهد مثله في حياتي..

النيران أحسست أنها توقفت عندنا لوقتٍ طويل جدًّا.. نالت النيران من ملابس أبي؛ لأن نافذته مفتوحة عن آخرها وهو يكلم الرجل.. أحسست بدَفعة قوية للسيارة وانقلبت عدة مرات قوية.. آخر شيء رأيته بعدما استقرت السيارة على وضعها المنقلب على الطريق.. أمي وهي تصرخ على أبي الذي تفحم وجهه بالكامل..

ثم غبت عن الوعي..

لم أشعر بنفسي بعد ذلك إلا وأنا مستلْقٍ على فراش في غرفة بمستشفى، وأمي على فراش أيضًا بجانبي.. كانت في وعيها، ولكن حالتها سيئة لدرجة كبيرة أشعر بذلك رغم سوء حالتي أنا أيضًا.. عرفت فيما بعد من الطبيب المعالج لنا أني قضيت في غيبوبة قرابة أربعة أيام.. ولكن والدتي سبقتني إلى الوعي بيومين، وأنها قد ولدت وهي في الغيبوبة ولادة قيصرية.. الحمدلله أننا كُتِبَت لنا الحياة أنا وأمي وأختي الصغيرة العضو الأجدد في العائلة.. وأبي قد فارق الحياة في يوم الحادث بسبب حروق جسيمة في الصدر والرأس بالكامل.. كنت حزينًا ولكني كنت متوقعًا ذلك أيضًا.. يبدو أن السعادة ليست كاملة بل إنها لم ترقَ لأن تكون سعادة عابرة.. وما زاد الطين بلة مثلما يقولون إني من هول ماحدث أُصِبت بصدمة نفسية منعتني من الكلام.. ولم يتوقعوا أن تكون مدة شفائي منها بالقليلة.. لذلك نُقِلت بعد أسبوع

من استفاقتي إلى مستشفى للتأهيل النفسي.. قضيت فيها سنة كاملة راعتني فيها أمي في كل وقت.. لم أحس أني في مشفى أبدًا.. أحسست أني في بيتي حقًّا وهؤلاء البشر الذين أرى فيهم بقلب الطفل البريء أنهم أنقياء، فطرتهم لم تتسخ بعد، أو نقيت هنا بعد حادث ما.. من يعلم.. أعانت جدتي –والدة والدتي– والدتي على الاعتناء بأختي التي علمت أنها سمّتها " حنين ".. رأيتها عدت مرات في فترة علاجي.. وما كان يؤلمني حقًّا في هذه الفترة هو الإرهاق الذي أراه على أمي باستمرار.. بسبب عملها الجديد في إحدى الشركات محاسبة، كانت تقول لي هذا باستمرار ولا أعرف أن المحاسبين يبذلون كل هذا الجهد في العمل كي تصبح وجوههم شاحبة وذابلة مثل وجه أمي.. برغم أن معاش والدي وما ادخره في البنوك كان يكفي ليعيشنا عيشة رغدة، ولكن نفقات علاجي كانت ثقيلة على ذلك المعاش.. خرجت بعد سنة كاملة، كان يوم عيد ميلادي السادس .. أصررت على أن أحتفل به في غرفتي في المشفة وأن أدعو إليه كل الأطباء والممرضات وحتى المرضى الذين لم أعرفهم.. لأنسى أن هذا اليوم يومُ فقدت أبي.. وأتحدى هذا الهاجس النفسي حتى لا يكون عقبة في سنوات كثيرة قادمة.. كان يومًا جميلًا فعلًا لا يحمل أيًّا من أنواع العذاب الروحي من الحزن والأسى.. ولكن كنت أرى في عينيْ أمي دموعًا تذكرني بأمطار يوم الحادث اللعين.. إنها أمطار من عين أمي تترحم على أبي.

عدت بعدها إلى حياتي الطبيعية والتحقت بالمدرسة وأحببت مجال

الطب النفسي كثيرًا، وقرأت عنه الكثير ،وكنت أرى أنه مستقبلي.. وأحببت كل عائلتي المكوَّنة من أمي وأختي، ولا أقرباء لدينا بعد جدتي التي توفيت في زلزال أكتوبر ٩٢.. رحمهم الله جميعًا..

الآن أختي تخرجت من كلية الحقوق، وأمي أصبحت مديرة الحسابات في شركة شهيرة وأنا أصبحت طبيب أمراض نفسية وعصبية.. والحمدلله مازلت بكامل عقلي، ما هذا!! قد مضى الكثير من الوقت وأنا أتذكر.. فالشمس أشرقت، ووضحت جليًّا محتويات غرفتي.. يبدو أن الذكريات وسيلة رائعة لتمرير الوقت الثقيل..

فراشي كان يتوسط الغرفة وأمامي تلفاز معلّق على الحائط، وعلى الجانب الأيمن منّي يوجد "كمود" وُضِع عليه ريموت التلفاز، وساعة على شكل مستطيل.. والحائط الأيمن الجزء الأكبر منه تشغله خزانة ملابس.. والباب في الجزء الشمالي الشرقي للغرفة..

وألوان الغرفة مبهجة ومريحة للعين؛ فاللونان الأخضر والأبيض كانا يمتزجان بدقة متناهية.

وعلى الجانب الأيسر منّي ،الشرفة وكمود وُضِعَ عليه كوب ماء زجاجي ورزمة أوراق لا أستطيع قراءة عنوانه.. يبدو أن نظري ضعف وهزل وأنا هنا..

بالحق منذ متى وأنا هنا ؟!

صوت طرق على الباب ..

فُتِح الباب ببطء..

دخلت ممرضة لم يميز ملامحها.. ولكن كان الأهم بالنسبة له أنها كانت قادمة بطعام الإفطار..

ظل يأكل بنهم شديد جدًّا كأنه قادم من مجاعات إفريقيا القاتلة. ما إن انتهى من طعامه حتى جاءت ممرضة وحملت الطعام وخرجت بدون

كلمة.

كان يريد أن يسألها عن وجوده هنا وماذا حدث له قبل أن يأتي، ومنذ متى، ولكن لم تعطِه الفرصة وهرولت للخارج بسرعة.

سُرقت منه ساعات من وقته دون أن يشعر بها وهو يعتصر ذاكرته أو يتذكر ذكرياته وأصدقاءه الذين أغلبهم الآن أطباء نفسيين.

بدون مقدمات دخل شخص يلبس بالطو طبيب ويبتسم لشوقي، يبدو أنه يعرف الكثير عنه وسيسعفه بإجابات لأسئلته.

(٣)

- شوقي محمد نجيب.. طبيب أمراض نفسية وعصبية.. مقيم في القاهرة مع والدتك وأختك.. ووالدك متوفٍّ من سنة ١٩٩٢ م.. هل البيانات التي قرأتها صحيحة؟!

استغرب شوقي في داخله عن ذِكر أبيه وإقامته مع أمه وأخته في بيانته بالمستشفى لكنه قال :

- نعم..

امتعض وجه الطبيب، ولكن بسرعة ما عادت ابتسامته ترتسم على وجهه.

نادى على إحدى الممرضات وأمرها بشيء ما وذهبت بسرعة ..

ذهب لخزانة الملابس وأخرج منها شيئًا يشبه البطاقة الشخصية ووضعها في جيبه، وضع كرسيًّا بجانب فراش شوقي وجلس عليه وقال له:

- اسمعني جيدًا، سنبدأ العلاج بدون أي تعقيدات، أنصت إليَّ ولا تقاطعني.

- أنا لا أذكر آخر ما مررت به، ولا أعرف ما أنا مصاب به وأنت لم أعرف اسمك وتخصصك

- اسمي رامي فؤاد، المسئول عن علاجك، طبيب نفسي.

- ماذا ؟!

دخلت ممرضة بعد دق الباب وأعطت لرامي أوراقًا وانصرفت:

- اسمع ولك حرية الاختيار بعد ذلك.

لم يردّ شوقي وأكمل رامي السرد :

" خبر في صفحة الحوادث بجريدة (الوفاء)

جريمة شنيعة بحق عائلة نوح بشبرا.

جريمة شنيعة وقعت بأحد شوارع شبرا بحق عائلة كاملة معروفة في منطقته بعائلة نوح، هل تستحق الجريمة وصفها بالشنيعة ؟!

استمع إلى شهادة "إبراهيم عبد العزيز" قائد فريق البحث الجنائي واحكم بنفسك .

" انتقلت أنا " إبراهيم عبدالعزيز محمد " ومعي لمساعدتي " حمد سليمان " و"خالد محي الدين " و" محمد شكري " ضمن فريق البحث الجنائي صباح يوم ١٥ ديسمبر الساعة السابعة وأربعون دقيقة إلى

مكان الحادث في حي شبرا بعد تلقّي بلاغات من أهالي المنطقة عن اختفاء إمام مسجد المنطقة ويدعى " نوح عبد التواب جمعة " وعائلته كاملة منذ ٨ أيام كاملة، وأيضًا تزامُن مع هذا تلقّي بلاغ عن اختفاء سيدة تدعى " شيماء السيد علي" ويذكر أن السيدة شيماء هي طليقة ابنهما محمد نوح وتلقي شكاوى من قاطني العقار الذي وقع فيه الحادث، وكما تعرف أننا لا نستطيع التأخر عن مساعدة المواطنين، ولكن أردنا التحقق من ذلك لعدم إذاعة الخوف في نفوس البقية؛ كما تعرف أن الشعور النفسي بالاطمئنان هو هدفي، استنتجت أن الشكاوى بها شيء مشترك وهو انبعاث رائحة كريهة من فناء البيت، وبعد انتقالنا هناك سمعنا حكايات عن القبو ورائحته ترقى لأن تكون أساطير عن قرابين للجن، ولكننا لم نصدق ذلك لأننا نعلم جيدًا الفرق بين الحقيقة والخرافة، وقفنا عند مدخل القبو كانت الرائحة كريهة إلى حدٍّ كبيرٍ، وبعد محاولات لكسر الباب استطعنا بقوتنا وإصرارنا أن ننجح في اقتحامه كان هناك سُلّم يؤدي للقبو.

وازدات الرائحة العطنة لدرجة نفور الناس المتجمعين حولنا، لكننا تماسكنا وقاومنا ذلك بكل شجاعة منا، نزلنا لأسفل ورأينا مشهدًا بشعًا يثير الغثيان، وكان أحد من الفريق معنا يريد الخروج من قبح الرائحة، ولكني أمرته بالمقاومة فالبطبع أنت والسادة القارئين تعرفون الفرق بين الظابط المقاوم والشجاع والظابط المتخاذل، بقيادتي وبتشجيعي لهم تحاملنا لنكتب تقريرًا شاملًا ودقيقًا عمَّا في القبو، وكان ما رأيناه كالتالي :

ثلاث جثث مذبوحة ومقطعة أيديهم وارجلهم ومتناثرة بطريقة عشوائية في المكان.. اصابتنا مشاهد الجثث ورائحة تحللها بدوار عنيف كان التنفس أشبه بالمستحيل لكننا تحاملنا، كانت الجثة الاولي هي جثة " نور عبد التواب محمد " مذبوح بطريقة غوائية ويداه منفصلتان عن جسده وساقاه أيضًا منفصلتان عنه.. وكانت الجثث الباقية هي لزوجته " أمنية فتحي محمود " وابنته " حنان نوح عبد التواب " بنفس طريقة القتل التي قُتِلَ بها الأب.. صوَّرنا الجثث في مواضعها على الأرض، وعندما هممنا بالرحيل سمعنا صوت همهمات وأنين لشخص ما.. لم ندرِ مصدرها إلا بعد خمس دقائق بسبب الدوار الذي أُصِبنا به.. وتوصلنا لمصدر الصوت وكانت لفتاة عشرينية تدعى"شيماء على السيد" أمامها قطع لحم نيء وملابسها مقطعة بالكامل، أسرعت أنا بردائي لأستر جسدها وهرعت للخارج بسرعة لأطلب ملابس تستر جسدها من الحشد المتجمع خارج القبو.. ألبستها عباءة سوداء كبيرة وهي تكاد فاقدة الوعي ولم تدرِ بشيء.. والتقطت صورًا، لها ولكنها استفاقت بعربة الإسعاف التي طلبت أن تأتي وقالت جملة بطريقة هيسترية وجنونية " اتركوني بقبري أنا ميتة" طلبت قوة من الشرطة والمعمل الجنائي ليعاينوا المكان وتبدأ التحقيقات في هذه المجزرة البشعة.

ملحوظة هامة: لم يُعثَر على " محمد نوح عبد التواب " ابن العائلة المجني عليها، وبحدسي أتوقع أننا سنجد جثته مقتولة مثل طريقة قتل عائلته؛ لأن يبدو أن دافع الجريمة يُقترَن بالعائلة كلها يمكن أن يكون " طار" أو انتقام لشيء لا نعلمه، ولكني أتوقعه "

كانت هذه شهادة "إبراهيم عبد العزيز" قائد فريق البحث الجنائي، وقد حصلت على تقرير الطب الشرعي لتلك الجريمة أو المجزرة كما يصفها إبراهيم، وكان يتحدث عن الذبح وقطع الأرجل واليدين أنهما بطريقة لم تعرف القتل يومًا مما ينذر أن هناك عداء بين العائلة وبين القاتل مما جعله يقتلهم بدافع الانتقام كما توقع إبراهيم، أما عن " شيماء على السيد "فحالتها كانت سيئة جدًّا بعد تعرُّضها للاغتصاب وتواجُدها بمكان الجثث المقطَّعة والمذبوحة ثمانية أيام؛ مما يؤكد أنها ستحتاج إلى علاج نفسي طويل لترجع لطبيعتها، وقد أودعتها النيابة إلى مستشفي (.....) الحكومي للتأهيل النفسي، أما عن ابنهما "محمد نوح عبد التواب" فقد تم القبض عليه يوم ٢١ ديسمبر بعد بلاغ أحد أقاربه عنه، وأيضًا أودعته النيابة إلى نفس المستشفى الحكومي التي توجد بها شيماء. تبقى الحقيقة مطموسة إلى أن يتم معرفتها بعد علاج شيماء ومحمد نوح

سنوافيكم بالمزيد في الأيام القادمة "

أنهى رامي سرده للخبر الذي بيده وأمسك بتقرير، وقبل أن يقرأه قاطعه

شوقي غاضبًا:

- ما دخلي بما تحكيه الآن وبعائلة نوح هذه، ثم أين عائلتي أنا؟!

تردد رامي في الإجابة لكنه ردَّ بإجابة عصفت بعقل شوقي:

- قتلوا..

حدق شوقي برامي غير مصدق ما يقول فأكمل وهو يعطيه بطاقة شخصية :

- وهذا هو قاتلهم.

كانت البطاقة باسم " محمد نوح عبد التواب " والعنوان بحي شبرا، ولكن

صورة البطاقة هي صورة شوقي نفسه، نظر إلى البطاقة وأفكاره تتخبط

في عقله بعشوائية فأرغمته على الصمت وأكمل رامي سرده :

" آخر تقرير هو تقرير الطبيب النفسي المسئول عن علاجك.. أنا:

" جاء محمد نوح عبد التواب إلى مستشفى رامي فؤاد الخاصة للتأهيل

النفسي بعد أن نقلته النيابة إلى مستشفى(...) الحكومية النفسية

للتأكد من سلامة قواه العقلية.. وكتب الطبيب النفسي عن حالته النفسية المتردية في مستشفى (...) وأنه بحاجة إلى العلاج النفسي لفترة طويلة؛ لذلك طلب أقارب المتهم محمد نوح نقله إلى هنا، وقد جاء يوم ٩يناير، وبعد أسبوع من المتابعة وتشخيص حالته النفسية، كتبت التقرير التالي :

اسم المريض: محمد نوح عبد التواب جمعة

السن : ٢٧ عام

المرض :

يعاني محمد من مرض نفسي يسمي (أوهام كابغرا) وهو مرض يرى المصاب به أن شخصًا ما أو مجموعة من الأشخاص الذين يعرفهم ليسوا هم أو بمعنى أدق وأوضح يتعامل معاهم وكأنهم أشخاص غرباء لا يعرفهم نتيجة لتلقيه معاملة سيئة منهم باختلاف الأسباب التي يمكن أن يراهم

هكذا كفكرة قتلهم أو استبدالهم بأشخاص يشبهونهم لا يعرفهم..

في النهاية تكون النتيجة التي وصل إليها واحدة وهي رؤيتهم على أنهم

غرباء يتمنون له الشر ويتآمرون عليه.. وفي حالة محمد فهو رأى عائلته

على أنهم غرباء وليسوا عائلته التي يعرفها؛ وذلك لأنه تلقى معاملة سيئة

للغاية منهم لأنه أخبرهم بقرار إلحاده وعدم إيقانه بوجود إله للكون، حاول أفراد عائلته في البداية أن يرجعوه عمّا هو فيه، ولكن بلا جدوى لذلك.

قرروا أن يعاملوه معاملة وحشية وعزلوه بغرفته التي أوصدوها بالحديد

منعًا لهربه، ومنعوه من الخروج منها، وتقليل الطعام والماء تدريجيًّا وعدم مقابلة أحد، عدم السماع منهم إلا السباب فقط.. أصيب بحالة اكتئاب حادة. حاول الانتحار مرتين ولكن فشل.. ونتيجة لكل ذلك

اعتقد أن هؤلاء غرباء غير عائلته، وأنه يجب أن يقتلهم انتقامًا لما فعلوه له وبعائلته – على حسب تفكيره– وهو المرض المذكور أعلاه (أوهام كابغرا) وخطط لقتلهم بأبشع الطرق، وكانت النهاية هي المجزرة الذي قام فيها بذبح كل أفراد عائلته بعد تخديرهم ونقلهم إلى قبو المبنى، وقام بعدها بقطع أرجلهم وأياديهم بطريقة لم تعرف الذبح يومًا مما يثبت أنه مسالم طوال حياته، ولكن ما لاقاه من معاملة وحشية حوَّله إلى وحشٍ لا يعرف الرحمة؛ ولذلك أطلب من النيابة ترك المتهم: محمد نوح عبد التواب، كما طلب أقرباؤه ليتم العلاج ويشفى تمامًا، وبعدها يتم تقديمه للمحاكمة. وسنوافيكم بتقرير شهري عن حالته طوال فترة علاجه هنا.. وشكراً

د . رامي فؤاد

مدير مستشفى رامي فؤاد الخاص

- يا محمد أنت مريض نفسي هنا منذ شهر يناير، أي منذ ثلاثة أشهر، أعرف أنك لا تصدقني وتصدق أنك طبيب نفسي يدعى شوقي، وستتهمني بخداعك، ولكن هذه هي الحقيقة التي يجب أن أمحو بها الوهم الذي يقطن بعقلك،

خرج عن صمته وقال له بلهجة حادة لا تخلو من الحيرة :

- أي حقيقة تريدني أن أعرفها؟

- أنك محمد نوح عبدالتواب، أنت من قتلت عائلتك، أعرف أنهم عاملوك بوحشية ولكل فعل رد فعل لذلك قتلتهم بوحشية، وطليقتك شيماء التي اختطفتها ووضعتها بالقبو بجوار جثث عائلتك المقطعة والمذبوحة ثمانية أيام والتي كنت تطعمها من لحمهم النيئ، إلى أن أصيبت بمتلازمة تسمى " الجثة الحية " اعتقدت شيماء أنها فارقت الحياة وأن قبو المبنى هو قبرها، وهي لا تزال تتلقى العلاج في المستشفي الحكومي الذي نُقِلَت منه إلى هنا، أنت دمرت حياة كل من حولك وبعد اعترافك بالجريمة وشفائك من " أوهام كابغرا" أصبحت تختبئ وراء شخصيات تبتكرها، وتصير هذه الشخصية، والدليل على ذلك أنك تعتقد أنك الطبيب شوقي محمد نجيب وهذا غير صحيح.

- أنت مجنون بالتأكيد، أتعرف مَن أنا، أنا الطبيب شوقي الذي بشهادة الجميع لي خبرة بمعالجة الحالات الأكثر تعقيدًا نفسيًّا، لي حياتي وأسرتي وطفولتي وذكرياتي، تمحو كل هذا وتقول إنها مجرد أوهام، أي نوع من المخدرات تتعاطى؟!

رغم كل كلامه الذي يرقى لأن يكون إهانة لرامي إلا أنه حافظ على هدوئه وثباته، دخل رجل يلبس لباس شرطي – ميري -، وقف عند الباب، أشار إليه رامي بأن يأتي ويجلس بجانبه، وشوقي أو محمد - كما يقول رامي –

يحدق في الشرطي وكأن عينيه تتشبثان بطوق النجاة:

- عصام قل لهم إني شوقي، وأني لست مريضًا، قل لهم إنهم لا يصدقوني.

نظر عصام ورامي لبعضهما إلى أن قال عصام:

- كيف حالك يا محمد؟!

قالها عصام وشوقي يصوِّب له نظرات لائمة غير مصدقة، ساد الصمت

بينهم إلى أن قال رامي وهو يشير إلى عصام :

- الرائد عصام ثروت، المسئول عن قضيتك، وكان له فضل كبير بموافقة النيابة على تركك للعلاج بعد إرسال له تقريري عن حالتك، هو يزورك كل أسبوعين لمتابعة حالتك والاطمئنان عليك.

قال عصام محاولًا التقليل من حدة كلامه:

- يا محمد أرجوك اسمعني وصدقني، فجميعنا قد أنهكنا التعب لعلاجك، كنا نظن بعد اعترافك بجريمتك وشفائك من هذا المرض الذي يسمى "أوهام كابغرا" أن كل شيء سيسر في مجراه الطبيعي، ولكن قد أبلغني الدكتور رامي منذ أيام أن عقلك سيحاول أن يتهرب من الجريمة بأي شكل وهذا ما حدث لك؛ فأنت الآن تتقمص شخصية شوقي التي اخترعتها وزرعت برأسك ذكريات ومشاعر وأحداث لم تحدث لك في الواقع، وذلك ينذر بدخولك بمرض جديد يعوقك عن الحقيقة ويعيقنا عن ممارسة عملنا، أرجوك قاوم أوهامك وصدقنا.

صرخ فيهم بشدة :

- أنتما تكذبان وتخدعان، أنا شوقي لست ذلك المعتوه الذي قتل عائلته، أنتما المريضان ولست أنا.

صاح عصام فيه بجِدّة:

- أنت تدعي الجنون لتفلت من السجن، وأنا لن أجعلك تفلت مادمت على قيد الحياة.

قاطعه رامي بحدة :

- أيها الرائد، عندما تتهم مريضًا عندي بادعاء الجنون، يعني أنك تقول لي إما أني لا أرى عملي جيدًا، أو أنني أساعده ليفلت من عقوبته، وفي الحالتين لن أقبل بهذه التهم.

نظر عصام إليهما نظرات غاضبة ثم غادر الغرفة.

- إن استمريت في هذه الحالة من تقمص شخصية شوقي هذا، فالأيام القادمة ستتذكر أن آخر ما مر بك هو أنك كنت في قرية وأحدهم كان يريد التخلص منك وإحراقك أمام حشد من الناس، لا تندهش هكذا فأنت بنفسك كتبت هذا في رزمة الأوراق التي بجانبك وسميتها القرية، وكتبت آخر ما مر بك وأنت تعتقد أنك شوقي، اقرأها وسأمر عليك غدًا، وإن أردت أي شيء اطلبه من الممرضين.

ثم هرول رامي خارج الغرفة هو الآخر.

نظر لرزمة الأوراق بجانبه..

وأفكاره مصلوبة على جدار رأسه بغير حراك.

سنتفق مع بعضنا أن كل مشهد نتجه إليه سيكون في نفس التوقيت بالضبط حتى تنضح الصورة كاملة برأسكم.. اتفقنا ؟!.. اتفقنا

(٤)

في مكانٍ ما تحت سطح الأرض بمئات الأمتار، يقف رجل ببذلته الراقية المنمقة وفي يده ورقة كبيرة الحجم وتمسح أشعة الليزر عينه ثم ينطلق صوت إلكتروني لسماحه بالدخول، فينفتح الباب ويدخل بخطوات

ثابتة ويقترب من مكتب رجل نظرًا لأهميته في المكان سنطلق عليه اسم"المسؤل " حتى لا يتم الخلط بين الاثنين.. فقال الرجل وهو يعطي للمسئول الورقة:

- وجدنا هذه الورقة في قبره ياسيدي.

أخذ المسئول منه الورقة وهو يقرأها وملامح الدهشة تغزو وجه قبل أن يقول:

- للأسف لن يكون التخلص منه سهلًا أبدًا.

- ماذا سنفعل يا سيدي؟

- أخبِر كل القائمين على المهمة بتغييرها إلى الخطة "ب" وأعيد هذه الورقة لمكانها..

- سينفَّذ الآن يا فندم.

وغادر الرجل المكتب لإخبارهم بتغيير الخطة.

(٥)

وقف الرائد عصام ثروت أمام كشك في أحد شوارع القاهرة العتيقة لبيبتاع سجائر، اشترى ما يريد أن يحرقه، وأخرج عقب سيجارة وأشعلها وهو يمشي تجاه سيارته.. مرت سيارة سوداء اللون من أمامه فاختفى من أمام عيون المارة بمجرد مرورها.. داخل السيارة كان يقاوم عصام مخطفيه إلى أن كمموه بمخدر وهدأت مقاومته وانتظمت أنفاسه.. سأل سائق السيارة الرجلين اللذين يحاوطان عصام بالخلف:

- إلى أين سنأخذه؟!

- إلى بيت الحاج سيد في القرية وفور وصولنا سنطمئن الباشا.

(٦)

تمر الأيام كالدهر والملل ينخر فيه، بلا تفريق بين الحقيقة والوهم، كأعمى لا يفرق بين النور والظلام، شعور أن تعيش حياة ثم تُوضَع أمامك حياة أخرى الكل يجزم أنها حياتك وأن ماتذكر من ذكريات، وكل ما تشعره من شعور أوهام شيء صعب للغاية، كانت هذه حياة شوقي

-كما يظن- أو محمد -كما يؤكد رامي وعصام-، مرَّ أسبوع على زيارة الدكتور رامي والرائد عصام له وعلي زيارة التخبط لعقله وروحه، يقوم كل يوم بطقوس مكررة:

يتناول الإفطار..

يأخذ الدواء ..

ينزل لحديقة المستشفى ..

يعود إلى فراشه..

لا يكلم أحدًا..

يرمق الفراغ باهتمام ..

يبتسم لذكرياته وتنحت ملامح الحزن على وجهه في واقعه..

يتناول غداءه وعشاءه ويخلد إلى النوم ..

وبالتأكيد يقضي حاجته في أوقاتٍ متفرقة من اليوم ..

أكثر ما كان يفزعه هو ذلك الحلم الذي يحلم به كل يومين تقريبًا، يرى فيه نفسه في غرفة يحقق معه شخص في جرائم القتل – التي وجهها له الدكتور رامي من قبل– وكان بعد فترة يفيق ويشعر أنه لم ينم جيدًا أو يحس ببعض التثاقل، لكن سرعان ما ينتهي الفزع على شتى طقوس يومه الروتينية.

وها هي الطقوس المكررة تبدء من جديد، ولكن هذه المرة سوف يكون فيها شيء مميز.. أو مخلص.

دخلت الممرضة – بعد طرق الباب – حاملة طعام الإفطار وتضعه على "الكمود" الأيمن له فيقوم بتثاقل ليأكل و..

ما هذه الورقة المخبأة في الخبز..

شخصت عيناه وبدأت علامات الفرحة تملأ وجهه..

فالورقة كان مكتوب عليها التالي:

" لا تجعلهم يخدعوك، أنت شوقي الطبيب النفسي، سأخرجك من هذه المستشفى المخادعة، ثق بي وانتظرني الليلة

صديقك يوسف نشأت "

ابتلع شوقي الورقة تلقائيًّا حتى تستقر في جوفه، ونظر والأمل ينصب من عينه، ولحُسن حظه أنه كان يتذكر صديقه يوسف نشأت، فهو كاتب في جريدة في باب ماوراء الطبيعة وكان كثيرًا ما يساعده في علاج كثير من الناس باعتقادهم أنهم مسهم الجن وما هم إلا مرضى نفسيين، المهم الآن أنه سيأتي ويخلّصه ويبدأ مهمته في استعادة ذاكرته التي بها أحداث كثيرة في قسم المحظورات، سيأتي الليلة.

(٧)

"أنا لا أصدق أننا خرجنا من هذا المكان المشؤم بهذه السهولة"

قالها شوقي وهو بجانب يوسف في سيارته – التي يقودها –وبدأ شوقي في استرسال بعض النفخات التي تحمل معها ضيقه إلى الخارج واستقرار الراحة والسكينة داخله، فقال له يوسف:

- في الليل لا يوجد أحد من الأطباء، وبالمال تستطيع أن تشتري كل الممرضين داخل تلك المستشفى، وهكذا أخرجتك من بوابة المستشفى بمساعدة ذلك الممرض الذي أخرجك على كرسي متحرّك ولتجدني بالخارج وننطلق بك بعيدًا عن هذا المكان.

- لا أعرف كيف أشكرك يايوسف، لقد أنقذت حياتي من أن تُمحى من الوجود، ولكن كيف عرفت مكاني ؟!

- كما تعرف أني أعمل في باب ماوراء الطبيعة والقرى والأرياف أكثر عملي فيها نظرًا للجهل الذي يعشش فيها وبالتالي الأساطير داخل القرية ستكثر وتتناقلها الألسنة إلى أن تصل ليقين عندهم، وكل شيء يحدث يُفَسَّر أنه جن أو ماشبه، المهم أنت أبلغتني بأنك ستذهب إلى قرية في

الصعيد لم تقل لي لماذا، وكنت أنا عائد من رحلة سفر طويلة في المغرب، ولكن ما إن أعدت اسم القرية في رأسي حتى تذكرت أن خالي يقطن بها وقد حدثني عن أحداث غريبة تحدث في القرية، ولكن ما جعلني لا أستطيع أن أبحث عنها هي أن خالي ليس محبوبًا في القرية؛ لأنه لا يؤمن بالأساطير التي يعتقدون بها، وبالتالي أي شخص يأتي من جانبه لن يفيدوه في شيء، وكانت فكرة أن أجري عملًا صحفيًّا عن تلك القرية وأحداثها الغريبة وأنا جالس مع الطبيب - وهو أنت- الذاهب للقرية ستكون أفضل وأقل صعوبة، حاولت الاتصال بك مرارًا، ولكنك لم تكن تجيب، لذلك اتصلت بخالي ليخبرني عنك وما أحوالك في القرية، ولكنه قال إنه لم يرَك أو يسمع عنك، ولكن هناك شخصًا ما تم حرقه أمام أهل القرية في بيت شيخ الجامع، وفضول خالي جعله يراقب كل حركة مغادرة بيت الشيخ، إلى أن راقب سيارة حتى وصلت إلى هذه المستشفى، وأخبرني بذلك وجئت القرية وتأكدت أنك في هذه المستشفى وأن الناس يظنونك قد متَّ محروقًا؛ لذلك شعرت أن شيئًا مريبًا يحدث، ولكن في النهاية وبعد بضعة أيام استطعت أن أُخرِجَك من هذا المكان الملعون.

- شكرًا لك ولجهدك لإنقاذي، وبالطبع شكرًا لخالك، بالحق ماذا يعمل خالك؟!

- تاجر مخدرات.

صمت شوقي ليكمل يوسف:

- لا تنظر لي هكذا، أتظن أن المراقبة والنقود والسيارات هي ملك لفلاح يزرع أرضه ويبيع محصوله ليعيش بها عيشة رغداء، المهم أنه سيفدينا سواء بنقوده أو برجاله الذين قد نحتاجهم .

- ألا تعرف شيئًا عن عائلتي؟

- لا والله، فأنا في المغرب منذ شهور عدة.

أومأ شوقي برأسه متفهمًا وسأله:

- المهم الآن أين وجهتنا ؟!

- إلى القرية .

- أأعود إلى تلك القرية بعد ما كنت سُأحرق بها، وأنا بحاجة إلى أن أستعيد ما فقدته من ذاكرتي !!

- لا تخف فسنرجع إليها لتعرف مافقدته ذاكرتك أو جزءًا منه.

- كيف ؟!

رنَّ هاتف يوسف، أخرجه من سرواله وهمَّ بالرد وبعد صمت لبرهة قال :

"أحسنتم يا رجال، قيدوه بدون أي عنف، وتأكدوا من أنه لا يحمل سلاحًا أو أحد يتتبعه".

أنهى يوسف المكالمة، فقال لشوقي وابتسامة المنتصر تتعلق بشفتيه:

- سنعرف من صاحبك كل شيء .

- صاحبي من؟!

- الرائد عصام ثروت.

الفصل الثاني: تحقيق الموتى

(المجرمون الذين لم يحاسبوا، يخافون العدل أكثر مما يخافون الموت)

(٨)

وصلا إلى بيت الحاج سيد فوزي – خال يوسف – في القرية المشؤمة، لحسن الحظ كان بيته قريبًا من الطريق الذي دخلا منه القرية.. ولكن للاحتياط دخلا متخفيين بعض الشيء بـ"الكوفيات" دلفا داخل الغرفة التي احتجزا فيها عصام ثروت، كانت أطرافه مربوطة في الكرسي الجالس عليه ومكمم الفم وبجانبه اثنان من الرجال أو الفتوات إن صح التعبير.. فأمر يوسف الرجلين قائلًا:

- أزيلوا الكمامة من فمه.

قام أحد الرجلين بما أمرَ.. وتقدما نحوه أكثر وهو يحدق فيهما بنظرات راجية تحاول أن تختبئ تحت هيبته الزائفة كشرطي، لكنه لم ينبس بكلمة، وقال يوسف له بلهجة هادئة لا تخلو من التهديد :

- أنا لا أحب العنف يا عزيزي.. أعرف أنك تقولها لكثيرٍ من المتهمين عندك لكننا نختلف عنك.. قل لنا كل ما تعرفه وسنتركك ترجع لبيتك

سالمًا.. وإن لم تتكلم فلن نستخدم العنف مثلما تفعل.. بل سنجعلك مدمنًا أي نوعٍ تحب من المخدرات في أيام قليلة.

ابتسم محمد محاولًا إخفاء خوفه وقلقه مما قاله يوسف.. وقال :

- انظرا أنتما الاثنين أنا أعرف أنه يمكنكما إيذائي بسهولة، وأنا لا يهمني، فلم يعد يفرق معي شيء.. سأتكلم ليس لأني أخاف منكما ومن البلطجية الذين حولي.. سأتكلم من أجل أن يستعيد شوقي هويته ويعرف ما هو مقدم عليه.

- رائع، فلتبدأ كلامك ولنجعلها جلسة حديث ودية.

- الحكاية باختصار.. شوقي عَلِمَ بسِرٍّ خطير يمسّ أشخاصًا كبار في الدولة.. كانت الخطوة التالية بعد علمه هي التخلص منه، ولكن بطريقة يستفيد منها كل من سيشاركون في المهمة.

خرج شوقي عن صمته وقال له :

- سأطرح عليك أسئلة أريد إجابتها ولا أريد سماع أي حكايات وقصص منك.

أومأ برأسه موافقًا، فأردف:

- لماذا ذهبت إلى القرية، وماذا حدث لي هناك؟!

- ما أعرفه أن صديقك الدكتور "أحمد سالم" هو من بعثك إلى هناك، ومن توقُّعي أن يكون ذلك لمتابعة حالات نفسية غريبة في القرية، وأنت قضيت في القرية ثلاثة أيام في بيت فيها. وشيخ الجامع

والدكتور رامي فؤاد هما من أقنعا أهل القرية بأنك ساحر ويجب حرقك -وما أكثر الجهل في هؤلاء الناس-، فحاوطك أهل القرية وذهبوا بك إلى بيت شيخ الجامع، وأمام الناس أنت أُحرَقت عندما سقطت في الحفرة المشتعلة، ولكن الحقيقة أنك فقدت الوعي من الضربة التي تلقيتها على رأسك وان النار انطفأت قبل أن تقع فيها ووقعت على بساطٍ كبير ليحميك من الاصطدام بالمعدن وسخونته، كان الهدف الأكبر من هذا هو تعريضك لصدمة عنيفة تفقد بها الذاكرة جزئيًا، ولكن أنت فقدت الكثير من أحداث ذاكرتك، أكثر من المتوقع، وهذا أرجعوه إلى أن الضربة التي ضربوها لك على رأسك كانت عنيفة أكثر من اللازم أو زيادة في جرعة الأدوية التي كانوا يعطونك إياها، وبعد ساعات نقلوك إلى تلك المستشفي التي أفقت بها، وأنت تعلم الباقي.

- كيف تم إخفاء هويتي وإلصاق تهم لا تتعلق بي؟!

قهقه ضاحكًا وقال:

- أنت لا تعرف قوة ونفوذ الذين كشفت سرهم، هذا أمر سهل أن يخفوا هويتك أو يخفوك أنت شخصيًا من على وجه الأرض..

- مَن هُم؟!

- قلت لك سابقًا اني أعرف أنهم رجال كبار ومهمون في الدولة، لكن شخصيتهم لا أعرفها إطلاقًا.

- فلنفترض ذلك.. ما خطتهم للتخلص منّي.. قتلي؟!

- هم كانوا يردوك أن يمحوا شخصيتك ومكافأة للقائمين على المهمة..

- سأخرج من تلك الدائرة وأعود إليها بعد أن تجيبني عن الأشياء التي مررت بها.. الأحلام الغريبة التي كنت أحلم بها، هل لك تفسير لها ؟!

على الرغم أنه يسألَه سؤالًا يعرف أنه لن تأتيه إجابةعليه؛ لأنه شيء يحدث بداخل رأس شوقي لا أحد يعلم به غيره، لذلك قال يوسف مستنكرًا السؤال :

- وما أدراه بأحلامك يا شوقي ؟!

- نعم أعلمها وأعرف سببها وكيف تحدث وما نتيجتها.. وقلت لكم إني أخبركم لأني أريد ذلك ليس لخوفي منكم.

قالها عصام، فصمتوا محدقين فيه منتظرين الإجابة:

- تحقيق الموتى.. ذلك هو التعريف الذي كان يستخدمه الدكتور رامي.. وكنا نشارك فيه جميعًا.. وهذا سُمّك يا شوقي الذي دسسته للعالم.

حدق الجميع بنظراته على شوقي.. وهو لا يفهم ما يقول ولكن صمت ليكمل عصام :

- في معاد نومك كنا نأتي ونضع مخدرًا مخففًا يكفي لتخديرك بعض الدقائق إلى أن ننقلك لقبو المستشفي التي هي مثل بلاتوه السينما، كل مكان مصمَّم حسب الاحتياج.. والغرفة التي نستخدمها كانت – كما تعرف– مصممة على شكل غرفة تحقيق.. كنا نسألك الأسئلة عن الأحداث التي نريد أن نلصقها بعقلك وأنت مع الوقت ستتقتنع أن هذه أحداثك وذكرياتك.. هذا ما فهمته من هذه التجربة ولا أعلم شيئًا آخر.

كان شوقي يريد أن يسأله عن صلته بالموضوع عندما عبَّر عنها بالسُّم، وشوقي صانعه، ولكن أراد أن يبعد عن نفسه أي تهم على الأقل أمام يوسف، فسأله :

- محمد نوح عبد التواب، ماقضيته؟!

- معتقل سياسي مات من التعذيب في الفترة التي قتلت فيها عائلته.. وبعد شهور من التحقيق لم نتوصل إلى قاتل عائلته وتم غلق القضية، ولكن بإضافة جثة محمد نوح مع جثث عائلته لكي تبعتد تهمة التعذيب عن الظابط المسئول عن ذلك.

- وكيف أعدتم القضية لتجعلوا محمد نوح هو القاتل.. وما وجه استفادتكم من ذلك ؟!

- يبدو أنك لم تستوعب كلامي عن الكبار الذين حدثتك عنهم.. لكن سأخبرك بالتفاصيل.. أخفينا جثة محمد نوح من تقرير القضية وأعدنا القضية أن محمد تم القبض عليه بعد مقتل عائلته وهو يعاني من الأمراض نفسية التي وجهت إليك أنت من دكتور رامي.. واستفادتنا كانت تتلخص في أن أخي هو من عذَّب وقتل محمد نوح، وأن الدكتور رامي كان يريد أن يكون من القائمين على تحيقيق الموتى؛ لأني كما فهمت أن لا أحد يدير تلك اللعبة إلا أشخاص قليلون جدًّا، ورامي كان يريد أن يثبت نفسه ليكون من القائمين عليها فيما بعد.

- وما كانت الخطوة التالية بعد ذلك؟!

- شيء يسمى السيكودراما، بالتأكيد تعرفه ياشوقي فأنت طبيب نفسي وأنت من أسست هذه اللعبة.

حدق يوسف بشوقي بنظرات شعر أنها تخترقه، لكنه أجاب ليقطع حبل أفكار يوسف:

- نعم أعرفه.. وما وجه استفادتك أنت؟!

- أنا المسئول عن قضية قتل عائلة محمد نوح، ولم أنجح بها وأغلقت بفشلي في التوصُّل للقاتل.

صاح شوقي فيه مستنكرًا ما يقوله :

- أتدمر حياة صديقك وتشارك في خداعه من أجل غلق قضية بنجاح لساعدتك.. أتبني نجاحك على إخفاء هويتي !!

فصاح هو الآخر:

- أنت أحمق بحق.. لا تعرف مع من تلعب.. المهمة أساسها التخلص منك.. كان بإمكاننا أن نخفي جثة محمد في الصحراء بعد تعذيبه.. وغلق القضية لن يكون نهاية مستقبلي.. ورامي سيبحث عن غيرك ليجرب عليه ما يريده.. أنت لا تعرف معنى أنك ترفض أن يحدث لك هذا فيهددك أخوك بأن يقتلك أنت وعائلتك.. أخي أراد قتلي عندما رفضت فكيف كان سيتعامل معك.. على الأقل أعطيتك فرصة إعدام مؤجل.. وقد حالفك الحظ بأن أنقذك يوسف.. أنت لست أفضل منِّي.. أنا من هددت بعائلتي فصرت عاجزًا بنظرة ابنتي إليَّ وتصوري أنها مقتولة.. أما أنت ما دفعك لتساعدهم.. قل لي.. أنت أسوأ منِّي

بكثير، أنت وحش دمَّر حياة عائلته وأُناس أبرياء كثريين.. لو تعلم ما صنعت لذبحت الآن نفسك بدون تردد.

هنا توقف عن الحديث، لم يعد لشوقي مجال للتهرب بأن يعرف مافعله من شرٍّ كما يقول عصام، سأل شوقي مستسلمًا:

- ماذا فعلت – أنا - يا عصام ؟!

توقف تدفق الضوء..

صوت أعيرة نارية..

عاد الضوء ..

مازل شوقي ويوسف بجانب بعضهما وزادهما تسمُّرا في مكانهما مشهد الجثث الثلاثة أمامهما كلوحة رسمها قاتلهم الآن؛ فالرجلان اللذان كانا يحيطان بعصام كل منهما يئن من الألم دون أن يحرِّكا ساكنًا وجسماهما القويان ممددان على الأرض كل منهما يسند رأسه على ذراعه المفرود وسبابة اليد تشير إلى كرسي عصام، والدم تحت الكرسي يمتزج فيما بينه ويتدفق كأنه منبع نهر من صدرهما المصاب برصاصة.. أما عصام نفسه فمصاب بثلاث رصاصات، اثنتان في صدره وواحدة برقبته.. كان يحدق بهم بفزع ورأسه مندفعة للأمام.. أسرع شوقي إلى الكرسي وفكّ قيوده.. فاندفع للأمام بقوة فوقع برأسه غلى الأرض.. حاول أن يقول شيئًا، ولكن روحه تفارق جسده قبل أن تفارق كلماته فمه :

- الـ.. اللو.. اللوحة

قالها عصام ولا يخلو صوته من غرغرة الدم في رئته، لم يفهم ولكن في هذه اللحظات ما يقوله هو الخلاصة لما يبحث عنه.. هو الصدق المغادر إلى الأبد.

(٩)

بعد شد وتجاذب يوسف والحاج سيد مع شوقي بضرورة مغادرة البيت بدون عصام، انصاع شوقي في النهاية إلى رأيهما وركب السيارة وخرجا مسرعين خارج القرية لا يعرفان قِبلتهما ولكنهما الآن على طريق القاهرة – الإسماعلية الصحرواي، بعد فترة من سيرهما على الطريق قال شوقي ليوسف أن يتجه إلى بيته الذي يوجد قريبًا من الطريق الصحراوي هذا بالفعل بعد عدة توجيهات من شوقي، وصلا لطريق بيته؛ وهي فيلا يمكنك أن تراها معي في آخر الطريق الذي يسلكانه والطريق خالي تمامًا؛ لأن بيت شوقي يبدو أنه المكان السكني الوحيد في هذه المنطقة، فجأة ! قطع الطريق سياراتان أحطاتهما من الأمام والخلف ونزل منهما رجال حاملين أسلحة آلية وغطوا وجيهما وأركبوهما سيارتهم، إلى أن وصلوا لمخزن كبير، أجلسوا شوقي ويوسف على كرسيين، أمامهما يجلس رجل ينفث دخانه ويرمقهما بدون أن يخرج كلمة من فمه الذي أصبح كمدخنة قطار، قال الرجل بعد مدة ليست بالقليلة :

- أهلا بك ياشوقي، منذ متى لم نلتقِ؟

قال شوقي وهو يقسِّم نظراته بين الرجل ورجاله الذين يحتلون كل ركنٍ في المكان بأسلحتهم الآلية باختلافها :

- من أنت ؟!

قهقه ضاحكًا وقال :

- أنسيتني؟! كنت أتعشم فيك إلا تنساني، أنا عمار ابن عامر إبراهيم ألا تذكر أبي، ألا تذكر اللواء رفعت السيد أو حتى أبو عابد؟! الذين اجتمعت بهم جميعهم وبعدها بساعات قتلوا وتقريبًا في نفس التوقيت، كنا نظن أنك السبب في موتهم، ولكن ماحدث لك جعلنا نغض الطرف عنك، ولكن سنأتي بالقاتل عاجلًا أو آجلًا.

ونظر لشوقي نظرة تنثر شرار وقال :

- وكل من ساعده.

ثم أردف عمار:

- أعرف أنك حدث لك شيء مأسوي في القرية التي ذهبت إليها وعلى أثره فقدت الذاكرة، فقدًا جزئيًّا، لذلك لن أسألك عن هوية الحديث الذي دار بينكم في هذا الاجتماع المشؤوم؛ لأنه كان من مدة قصيرة شهر أو أكثر، ولكن سأسألك عن إكمال مساعدتنا في " تحقيق الموتى" لأنه موجود في ذاكرتك منذ شهور عدة، وبالتأكيد تتذكره، متى تحب أن نبدأ فيه من جديد؟!

نظر شوقي ليوسف ليقول شيئًا ينجده لوصف ذاكرته المشوّهة، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، قطع عمار أفكار شوقي المتخبطة وقال :

- قبل أن تتخذ قرارك تعالَ معي سأريك شيئًا.

قام شوقي معه مرغمًا يمشي وراءه في ممرات طويلة وبأعماقه يتوارى الخوف والحيرة والأحداث التي مرَّ بها لا تزال في قسم المحظورات في ذاكرته .

وقفا أمام زجاج غرفة كبيرة مربّعة كالتي تستخدم في التحقيق بحيث مَن بالخارج يرى من بداخلها، ومن بداخلها يرى الزجاج مرآة تعكس صورته لا ينفذ ضوء عينه من الزجاج ويرى من خلاله، وكان داخلها شخص غير مكتمل الملامح في عين شوقي بسبب جلوسه في آخر الغرفة ولكنه كان عاريًا تمامًا، جلس الرجل – الذي هو بداخل الغرفة – على الأرض ساندًا ظهره

على الجدار يضم ساقيه إلى صدره بحيث يستر عورته، قال عمار بلهجة آمرة لرجاله :

- أحضروا لنا كرسيين وابدأوا العرض لنستمتع، ولا تنسوا الفشار.

بسرعة أحضروا الكرسيين وجلس – شوقي وعامر - عليهما ودخل ثلاثة رجال على الرجل بداخل الغرفة ومعهم كرسي كالذي كان يستخدم قديمًا للتعذيب، ولكن كان الغرض منه هو تثبيته جيدًا كي يعطوه شيئًا بداخل محقن بأيديهم.

قال عمار موجهًا كلامه لشوقي ورجاله يحقنون الرجل بالغرفة :

- هذا السائل الذي يحقنون الرجل به يسمى "الفلوجكافين " إنه سرنا المنشود، ولكن أعدك أننا لن نستخدمه إلا في الحالات الطارئة بعد أن تتعاون معنا بالتأكيد.

- أنا لم أقرر بعد التعاون معكم، لأنني لا أعرف ما تريدونه .

- صه، شاهد هذا العرض الجميل .

خرج الرجال ومعم الكرسي من الغرفة وتركوا الرجل العاري بالداخل كما هو، ولكن بأضافة الفلوجكافين إلى جسده النحيل، قال شوقي لعمار بلهجة مهتمة بشأن الرجل العاري :

- هل ستقتلونه ؟!

- لا لا، أتظن أننا نقتل يا شوقي، هذا ظن سيء للغاية بنا، نحن فقط نعطي بعض الدروس في الحياة وبلا مقابل أيضًا، نحن ملائكة إن صححتم مفهوم الملائكة عندكم يا صديقي.

أعطى أحد الرجال عمار الفشار وظل يأكله باستمتاع وهو ينظر للرجل العاري الذي بدأ يتلوى ويحكّ جسده بقوة شديدة .

لم يعرف شوقي أن هذا العرض – إن صح التعبير – سينتهي بعد ساعة بالظبط، ولكن ساعة تحمل كل معاني آلام الحياة

سنبدأ وصفها بتوقيتٍ تنازلي ونعرف في الثانية الأخيرة مصير ذلك الرجل.

بقي٦٠ دقيقة

الرجل يتلوى في مكانه ويسقط أرضًا وهو يئن من الألم ويحك جسده بيده وفي أي شيء أمامه بقوة، تنزلق الدماء من جسده كاشفة عن لحمه وتكورجلده.. هنا قال عمار شارحًا ماذا يحدث بجسد هذا المسكين في هذه اللحظات:

- في الدقائق الأولى يشعر هذا التلميذ أن شيئًا ما بداخله يصاب بحساسيه إلى أن تصل إلى حدّ الألم بالتحديد في العظم؛ لهذا تراه ينهش في جسده محاوِلا التعمّق أكثر في جسده ليوقف تلك الحساسية، أحمق لم يعرف أن هذه هي البداية .

أنهى كلماته الأخيرة وهو يقذف بعض الفشار في فمه، وشوقي ينظر للرجل برعب ودقات قلبه بدأت تثور مع صراخ الرجل الذي بدأ يتعالى..

بقي ٥٠ دقيقة

الرجل يتصبب عرقًا بالمعنى الحرفي بلا مبالغة، فالعرق المجتمع حول جسده المتكوم على الأرض يمكن أن يكفي لترى انعكاس صورتك عليه كما تراها في بحيرة ما، لم يتوقف عن إزالة جلده عن جسده – من كثرة الحكة – إلا عندما تقيأ بغزارة حاملة أشياء متكورة ومتكلكعة كثيرة كأنه لا يفرغ طعامًا فقط بل يفرغ أحشاءه نفسها.

- قلت ألف مرة لا تطعموا التلميذ قبل الدرس، فهذا يقلقه قبل النوم ويفسد الأرض الذي هو عليها ويسبب لنا اشمئزازًا لما يخرجه، ألا ترى شوقي قد فتح عينه على آخرها متضايقًا من هذا المنظر المقزِّز.

- صدقني حضرتك، لم نطعمه هذه أحشاؤه.

- انتزعوا أحشاء التلميذ القادم، وحاولوا أن يظل حيًّا قدر المستطاع.

أومأ الرجل برأسه، وشوقي لم ينبس بكلمة واحدة فقد أخرس لجام لسانه هذا المنظر المريع لإنسان يحتضر في عذاب وألم

بقي ٤٠ دقيقة.

ترى معي هذا الجسد الممتلئ بالدماء والجلد المبعثر حوله، الذي لولا الصراخ لظنه الجميع أنه ميت، فالرجل ممدد على الأرض وتوقف عن الحكة وينظر بعينين جاحظتين إلى يديه المتصلبتين وبدأ كل جسده في الارتعاش في وضعٍ متصلّب إلى أقصى حد وامتزج صوت صراخه المتزايد والمبحوح مع صوت ارتطام جسده مع الأرض كأنك ترطم حديدة لينة في الأرض.

بقي ٣٠ دقيقة

ضحكات عمار تتزايد مع صراخ العاري، وشوقي كطيف زائر هذا المشهد

لا يتكلم ولا يحرك ساكنًا إلا تلك الملامح المفزعة التي تملأ وجهه، وتصب عليه مزيدًا من الفزع مع مرور الوقت، قال عمار في استمتاع وترقب شديدٍ:

- هذا أجمل فصل في العرض، فتبدأ عظام الجسد كلها بالتحول إلى جمرة من نار فترتفع حرارتها إلى أن تصل ٢٠٠ درجة مئوية كأنك أشعلت نيرانًا فيه حيًّا ولكن بداخله، إن الألم الداخلي أسوأ بكثير من سنين من الألم الخارجي، وأنت تعرف أكثر يا دكتور، ولكن هذا الرجل

ضعيف الصراخ أصبح مبحوحًا لدرجة كبيرة، ألا يستطيع أن يصرخ ساعة واحدة بدون تعب !!

بدأ اللون الأحمر يطفو تدريجيًّا على جسده ويمكن تمييزه جيدًا رغم محاوطة الدماء لاركان جسده، ولأول مرة يقوم من تكومه على الأرض ويفيق من حالة التصلب التي كان بها، يصرخ لحظات ولحظات يختبئ صراخه خلف تحذيرات حنجرته المجروحة من كثرة مرور الصراخ منها .

تخيل أن هناك نيرانًا – بالمعنى الحرفي تنخر في عظامك بلا أن تنقل أي حرارة لأي جزء آخر، فقط تركز على تحويل عظامك لجمرة من نار..

أي ألم ذلك !!

بقي ١٥ دقيقة

لا صراخ، لا ضجيج، إلا من ضحكات عمار الهيسترية من تشنجات الألم والعذاب من الرجل بعدما نفذ مخزون حنجرته من الصراخ

بقي ١٠ دقائق

هنا يبدأ الجلد باستقبال الحرارة الشديدة من عظمه، لماذا تنظر بهذا الفزع يا شوقي، أعلم أن الفشار يحتاج إلى ملحٍ، ولكن ليس لدرجة أن تستاء لهذه الدرجة ياصديقي، لا تقلق دقائق وينتهي العرض وسأعدّ لك فشارًا خاصًا بنفسي، أتحب الملح الكثير ؟!

شوقي في هذه اللحظات كدمية المارينوت تحرّكها أصابع الألم المنبعثة من تشنجات وملامح الرجل العاري والذي اكتسى باللون الأحمر من الدماء ومن حرارة عظامه المنتقلة إلى جلده.

بقي ٥ دقائق

الرجل التصق بالحائط بمعنى أنه والحائط أصبحا جزءًا واحدًا بعد أن احتضن

جلده المشتعل الجدار باشتياق، وضحكات عامر تملأ المكان ضجيجًا

بقي ٤ دقائق

عيناه تقطران سائلًا لزجًا، الجسد الملتصق بدأ في ترك الجدار وفي أن يهوى ليلتصق بالأرض، وجلده يزداد تكوّرًا واحمرارًا، وضحكات عمار تخرج المشهد عن مجراه المأسوي.

بقي ٣ دقائق

تباينت أحشاؤه – الباقية – جيدًا أخذت في الذوبان كأنها تتراقص أمام أعين المشاهدين وتسقط واحدة تلو الأخرى، والجلد يحضر حقائبه معلنًا الهجرة متكوّرًا من هذا الجسد، وشوقي يحاول ألا يتقيأ، وضحكات عمار ممتزجة بتصفيقه الحار.

بقي دقيقتان

ذابت عينه كاملة وأصبح جسده كبِركة من طين من لزوجة الذوبان.

بقي دقيقة

غرغرة تطفو على سطح هذه البِركة الطينية كأن روحه تركته الآن معلِنة

أنها كانت تشعر بالألم إلى اللحظة الأخيرة

انتهى العرض..

وانطلق صفير وتصفيق عمار كأنه يحيي فرقة مسرحية متكونة من كل عضو في جسد هذا.. إن وصف هذا الرجل صعبٌ بعد ما حدث له، ولو جئنا بأبشع الأوصاف مأساوية.

تقيأ شوقي بعد معركة مع معدته لمدة ساعة كاملة، هنا قال عمار بلا مبالاة وبحزن مصطنع:

- لماذا كل من يشاهد العرض يتقيأ في نهايته، الأرضية قاربت أن تتلاشى ملامحها، لا بأس، يجب أن تغيّر طعم فمك يا شوقي، صحيح لم تجب عليَّ، أتحب الفشار كثير الملح ؟!

(١٠)

"سأعطيك فرصة شهرًا كاملًا تفكر وتتذكر وتفعل ما يحلو لك، لا تهديد لك أو ترهيب في هذه المدة أنت حر، وسافر إلى حيث تريد فعندما تتذكرنا ستعرف من نحن وأننا نستطيع أن نجلبك من أي مكان أنت فيه، فلا تفكر أنك بالسفر تهرب، إن أردت أن تهرب فاهرب بالموت. عندما ينتهي الشهر ستكون لنا وسنأتي بك معززًا مكرّمًا لتقول قرارك "

تذكر شوقي كلمات عمار الأخيرة قبل أن يرحل هو ويوسف، وبعض الفتوات – التي طلبها يوسف من خاله ليأتوا إليه – في

بيت شوقي الذي كان أمامهم قبل أن يختطفهم عمار.اقتحم – رجال يوسف – بحركات بهلوانية الفيلا ليتأكدوا من أمانها

بعضهم وقع على بعض، والبعض الآخر حطم أطباقًا واكوابًا في المطبخ؛ فرغم ضخامة جسدهم لإلا أن بلاهة عقلهم لا توصف.

صعد شوقي للدور الثاني غير عابئ بما يفعلون وتبعه يوسف

كان الدور يحوي غرفتين كبيرتي المساحة.

الأولى كانت غرفة نوم فقط، والثانية غرفة نوم، ولكن يوجد ركن به مكتب فخم، كان شوقي يجلس على المكتب في الغرفة الثانية ويمسك بقلم ويخط به برحكات عشوائية، وبعض الكلمات والأسئلة وعلامات الاستفهام التي انتقلت من عقله إلى الورقة عله يراها بشكل مختلف ويقدر على حلها.

فكوَّنت الكلمات تساؤلات مثل :

كيف قُتل عصام ونحن بجانبه ولم لم نقتل معه، ومن الذي قتله؟!

وما سر تحقيق الموتى وارتباطي به ؟!

ومن هم (عامر إبراهيم – اللواء رفعت سيد – أبو عابد) وما موضوع الاجتماع الذي دار بيننا وأودى بحياتهم وأودى بي شخصًا مطاردًا مشوَّه الذاكرة.. لنفترض أن الاجتماع الذي دار بيننا كان عن السر الذي كشفته – مثل ما قال عصام – فهذا يدل على أن هذا السر أكبر بكثير من (عامر إبراهيم – اللواءرفعت سيد – أبو عابد) ويبدو من سلطة عمار أن والده – عامر إبراهيم – كان شخصًا مهمًا؛ إن لم يكن سياسيًّا فسيكون في مجاله الذي أتمنى أن اكتشفه قريبًا، ورتبة اللواء تدل على أن رفعت السيد شخصية مرموقة من جميع نواحي الحياة السياسية والاجتماعية وبالتأكيد في مجال عامر إبراهيم، وأبو عابد لا أستطيع أن استدل من اسمه على شيء، لكنه لن يقل أهمية عنهما، وجميعهم خطر فما الخطر الأكبر منهم ؟!

وأين عائلتي وخطيبتي – نور - الآن وما حالهم؟!

لم يجد إجابة على أيٍ من الأسئلة المنغرسة في تفاصيل ذاكرته المشوهة فجال بنظره إلى لوحة ما معلقة في الغرفة. دخل يوسف الغرفة وجد شوقي يقف متأملًا في لوحة أمامه، كانت اللوحة غريبة المعنى أو غير مفهومة بالنسبة لي، فهي لشخص يقف في شرفة وزواية التي رسم بها رأسي كأنها صورة التقطها أحد يقف في الشرفة التي فوقه، ممدد اليد بحيث تظهر يده أنها تمسك بسيارة ما في الشارع، والطقس في الشارع شتاء فالثلج يغطيه كما ترى، وسيارات مركونة أخرى باختلافها فتوجد عربة للبيع وسيارة أجرة وشرطة وإسعاف، هل فهم أحدكم مغزى اللوحة؟! في الحقيقة أنا لم أفهم .

لماذا شوقي يحرك اللوحة من مكانها ويضعها على المكتب؟!

ماذا يريد أن يفعل بتلك المطرقة التي بيده ؟!

صوت طرق المطرقة على الحائط شديد، ولكن كلما هاجرت بعض القطع من الحائط تباين فراغ على شكل مربع بداخله.. وبداخله كتاب !!

أخرج شوقي الكتاب وجلس على مكتبه ويوسف ينظر له بغير فهم، إلى أن سأل وقطعَ تدفق الأفكار داخل رأس شوقي:

- ما هذا ؟!

قال شوقي وهو لا يزال يثبت نظراته على الكتاب:

- اللوحة آخر كلمة قالها عصام – رحمه الله -، لذلك فكرت أنها تخبئ شيئًا وراءها، وهذا ما رأيته.

فتح أول صفحة في الكتاب جحظت عيناه، أدار الكتاب ليرى يوسف ما هو مكتوب..

" تحقيق الموتى "

هكذا كتب في منتصف أول صفحة وكتب تحتها اسمه "شوقي محمد نجيب"

لم يكن كتابًا عاديًا، لم يكتب فيه بعض الحكم والأمثال وبعض التجارب الحياتية البالية، حمل الكتاب بين ثنايا سطوره كوارث وحقائق مطموسة.. بالتأكيد لو وقع هذا الكتاب في يد الشرطة سيواجه شوقي عقوبة الإعدام وجهًا لوجه.

جلب يوسف كرسيًّا وجلس بجانب شوقي يقرآن الكتاب .

(١١)

بلا مقدمات ..

بدأ الأمر عندما جاء إلى رجل الأعمال: نادر الجارحي، رجل أعمال تشعر أنه والسلطة شيء واحد حتى بتغيُّر السلطة،

وكأنهما مؤخرتان في لباسٍ واحد !!

جاء لي عيادتي – ولا أعرف لِمَ أنا بالتحديد – يحكي عن جرائمه التي بدأت بالسرقة والرشاوى مرورًا بتلفيق التهم وإزاحة منافسيه إلى التعذيب والقتل.

لم يكن أيٌّ من حيتان الدولة ناقمًا عليه، بل كان يخدم كل منهم على حدة..

حتى لو كانت الحيتان متقاتلة هو يُشعِر كلًّا منهم كأنه يخدم وحده فقط؛لذلك كان محميًا من العدل، وما كان يزيد حصانته هو الظلم. حكى أنه يرى أحلامًا تراوضه باستمرار منذ أيام عن أنه في تحقيق ويواجه تهمًا بكل ما فعله في حياته، كل صغيرة وكبيرة. شعر في هذه الأيام أنه قلق إلى درجة كبيرة تكاد تهلكه؛ ولذلك جاء إليَّ .. لا أصدق

أن شخصًا مثله يأتي إليَّ ليحكي جرائمه كلها من أجل أن يتخلص من أحلام حديثة التكوين في نومه منذ بضعة أيام.

إن المجرمين الذين لم يُحاسَبوا يخافون العدل أكثر مما يخافون الموت.

انتهت الجلسة وقلت له بعض التعليمات الروتينية مثل الراحة وأخذ إجازة من العمل وألا ينفعل. إلخ...

وحددت له ميعادًا بعد أربعة أيام ليخبرني بما حدث له ولأحلامه.

ألغيتُ جميع مواعيد الجلسات في هذه الأيام، وانهمكت في التفكير في تفسير هذه الأحلام – غير الخوف – دون جدوى، حتي جاء موعد جلستي معه ولم يأتِ..

ترى هل راجع نفسه فيما قاله لي؟!

ولو هكذا، هل سيحاول التخلص منِّي ليتجنب فكرة أن أكشف جرائمه؟!

ولكن حتى لو كنت أفكر هكذا فهو محميّ من كبار البلد، سأحاول الاتصال به علِّي أجد شيئًا يخفف عني قلقي.

ساعتان من الاتصال ولم يرد.

إن الأمر شائك منذ بدايته، ولكن كيف ستكون نهايته ؟!

(١٢)

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أين العزاء.. نعم أعرف هذا المسجد، البقاء لله .

كانت هذه مكالمتي مع ابن نادر الجارحي التي أخبرني فيها أن والده قد فارق الحياة منذ يومٍ.

ذهبت للعزاء، وبعد الكلمات الروتينية المواسية وشُرب القهوة وإظهار بعض ملامح الأسى التمثيلية، انفردت بابن نادر قليلًا لأعرف سبب وفاته، وأيامه الاخيرة كيف كانت.

قال إن والده توفى بسبب أزمة قلبية حادة، وأنه في آخر أيامه كان منطويًا لا يغادر غرفته ولا يأكل ولا يشرب إلا أقل القليل، وقال إنهم في كل ليلة يسمعون حديثه مع أحدٍ غير موجود، وفي مرة دخلوا إليه وهو نائم كان يتمتم بكلمات غريبة وينهض من نومه في فزعٍ ويردد " أنتم كاذبون.. لن تنالوا منِّي " كان ذلك الحلم يحتل نومه حتى آخر لحظة له في الحياة.

عرفت ما أريد، واسيته ثانية ورجعت إلى عيادتي، وأبلغت والدتي أني سأقضي في العيادة أيامًا لدراسة حالة ما.

بعد ساعات من التفكير سطع في رأسي تساؤل أنتج فكرة رائعة: ماذا لو هذا الحلم يراوض الكثير من المجرمين ؟!

وأن هذه الحالة ليست حالة خاصة وأنها عامة على من ارتكبوا جرائم ولم يُحاسَبوا ولم يثأر العدل منهم.

فكرت بأن أتصل بكل طبيب نفسي أعرفه، وخاصة أن لي صداقات بأطباء نفسيين حول العالم.

جمعت أرقامهم ورتبت الاتصالات وبدأت أتصل بهم واحدًا تلو الآخر، كانوا تقريبًا ٣١ أو ٣٢ طبيب، لم تكن صيغة الحوار معهم شرحًا تفصيليا لما حدث مع نادر، بل بسؤالهم عن حالات أتت لهم يشكون من حُلمٍ يرون فيه أن أحدهم يحقق معهم في كل كبيرة وصغيرة في حياتهم.

عشرة أطباء قالوا لي إنهم مروا بحالات مثل هذه، معظمهم من مرضاهم وقليل من أصدقائهم وانتهى مطاف أحلامهم بالموت..

إحدى عشرة حالة رصدوها لي، طلبت منهم توثيق تلك الحالات وشهادة عائلتهم عن أيامهم الأخيرة وشهادتهم كأطباء ويرسلوها لي .

ولكن كان هناك حالاتان مختلفتان، الاختلاف يكمن أن التسعة حالات الباقية،ماتوا بأزمة قلبية حادة، أما هؤلاء فاختلفت طريقة موتهم عمن سواهم.

فالأول حكى عنه صديقي الأمريكي الطبيب " جون جورج "

عن شخص يدعى "دانيل براون " كان يأتي لوالده – الطبيب النفسي - في الستينيات، كان يعاني من هذا الحلم وأنه أصبح لا يحتمل أن يراه مجددًا، وحكى له أنه يقتل كل عاشقيين يراهما في الليل وحدهما بطريقة قاسية

كالذبح وقطع الشرايين .

هذا لأنه أصيب في حادث وتشوَّه وجهه وتركته حبيبته محطمة كل ما يملك من إنسانية لديه، فبدأ يرى حبيبته مع هذا الشخص الذي يجلس معها تحت الشجرة يتبادلان نظرات الحب، ويراها مع ذاك الشخص الذي يمسك بيديها ويتمشيان على الحشائش، باختصار كان يرى كل عاشقين الفتاة : حبيبته الخائنة، والفتي : الوحش الذي انتزعها منه بدون رحمة، لذلك كان يقتلهم بكل وحشية، بعد ما حكى لوالده في جلسات عدة عن جرائمه وعن هذا الحلم قال له إن حله الوحيد من التخلص من هذه الأحلام هو الاعتراف للشرطة بجرائمه وهذا سيريحه من قلقه وخوفه لأنه واجهه في الحقيقة ليست مجرد أحلام، كانت خطوة جرئية وخطرة أن تقول لسفّاح بأن يعترف بجرائمه بهذه السهولة، حدد له جلسة بعد يوم، وفي ميعاد الجلسة لم يأتِ، بل أرسل رسالة يقول له إنه الآن في مركز للشرطة وسيعترف بكل شيء، بعد أسابيع ذهب إلى دانيل ليرى ما آل إليه، وجده مبتسمًا وقابله بودٍ وعلى قسمات وجهه يظهر الرضا جليًّا، قال إنه استراح من

أحلامه وأنه لا يخاف الإعدام الذي أُصدِر بحقه وأنه يستحق ولعله يغفر له ما فعله.

كان جورج – والد جون – سعيدًا، ولكن يريد أن يتقن أن هذا هو شعوره الحقيقي وليس مصطنعًا فسأل الشرطي المسئول عن قضيته وقال له إنه اعترف بأنه قتل ستة وعشرين شخصًا وأن التحقيقات أثبتت أنهم أحد عشر شخص فقط وأنه مُصرٌّ على العدد الذي اعترف به منذ البداية .

تأكد الآن جورج أنه نجح في عمله وساعد في إظهار الحقيقة.

وبعدها بأيام أُعدِم دانيل .

طلبت من "جون" أن يوثِّق هذه الحالة وشهادة والده ونهايته بالإعدام ويرسلها لي، أما الحالة الثانية كانت من أستراليا من صديقي الطبيب" ويليم باكستون "

فقال لي شهادته عن حالة كان وسيلة الاتصال بينهما بعض الرسائل التي

يجدها ملقاة على باب منزله.

" (جايمس كوبر) هذا هو اسم المريض الذي أرسل إليَّ رسائل يحدثني عن ذلك الحلم الذي أخبرتني به يا شوقي، سأريك ثلاث رسائل من أول ما بعثها لي إلى يوم موته "

الرسالة الأولى:

" عزيزي الطبيب ويليم باكستون

لن أسأل عن حالك لأنه لا يعني لي في شيء، أنا أريد تفسيرًا لشيء واحد فقط، حلم يتعلق برأسي منذ أيام يقلقني بشدة، أرى فيه شخصًا يحقق معي في جرائمي، ماهي جرائمي؟!، قتلت أخي وقتلت زوجتي وقتلت خمسة آخرين..

كيف ولماذا؟! سأقول لك، والدي أسترالي تزوج والدتي الإفريقية وهو في رحلة استكشاف ما في إفريقيا، بدون تفاصيل كثيرة أنجباني وكان لي أخ – غير شقيق- يكبرني بأربع سنوات وجاء من امرأة استرالية بعلاقة غير شرعية مع أبي، المهم أن عائلتي تتكون من أبي وأمي وأخي - الغير شقيق - كنت لا أكمن بداخلي إلا الحب له حتى بمعاملته السيئة لي دائمًا وقوله إني أسود لا أليق بعائلتهم وأن أمي عاهرة استطاعت أن تسقط أبي في حبالها ويتزوجها، لم اكن أرد عليه ولا أشكوه لأبي، كنت أسمع كلامه وأهرول إلى غرفتي وأبكي إلى أن ينفذ مخزوني من الحزن من كلامه، مرت سنوات كثيرة وكبرنا وكل شخص منا كوَّن شخصيته واكتسب عملًا، وأنا تزوجت واستقر بي الوضع في بيتي الجديد مع زوجتي، التي لم أذق يومًا حلو معها رغم حبي الجامح لها، كانت تقول لي دائمًا أنها تزوجتني مرغمة وأنها كانت تحلم بشخص أجمل منِّي وليس أسود مثلي، كنت أغمض طرف كرامتي عن إهانتها لي. وجاء يوم ورأيت أخي وزوجتي على فراش واحد أتذكر كل شيء رأيته في لحظتها..

جذها العاري.. آهاتها المنتشية.. العرق المتصبب من جسديهما الملتصقين، لاحظا وجودي، ظلا يحدقان بي في فزع، وأنا أنظر إليهما

نظرات مترجية ليجيبا عليَّ، لِمَ فعلا هذا، لِمَ لَم يحباني كما أحبهم، ليتهما كانا توسلا إليَّ أن أرحمهما وأغفر لهما، ولكن صاحت في زوجتي وقالت إنها تكرهني وأنها تحب أخي لأنه وسيم وأبيض، وأني أشبه بغول بشع لا تطيق رؤيته، انقضتت على رقبتها وأنا افرغ الحياة من جسدها وأفرغ حبها من داخلي وأخي يحاول منعي من خنقها.. ماتت، كان بداخلي المزيد من الكره ووحشية القتل تنهش في روحي، ليتها قاومت الحياة بداخلها ولم تتسرب بهذه السرعة، ولكن كان بجانبي حياة كاملة أهانتني وخانتني وتستحق الموت؛ أخي قتلته بنفس الطريقة، شعرت براحة غريبة، نظرت إليهما متأمّلًا جسديهما العاريين الخاليين من الروح، جميل منظرهما كم أبهجني هذا المشهد، ولكني أحتاج للمزيد من المتعة والبهجة، أأضاجعهما؟! لا، فذلك شيء يلزم الحب وأنا قد نفذ مخزونه من عندي عرفت ماذا أفعل، سأنزع عنهما ما كانا يتباهيان به، وما كانا ينظران إليَّ تلك النظرات الحقيرة والمزرية بسببه..

نعم سلخت جلدهما، واقتلعت عيونهما من محجريها، لم أشعر براحة في حياتي مثل هذه أبدًا، إنها متعة لم أتوقف عنها أبدًا، رصدت كل من يعامل السود معاملة سيئة وينظر لهم تلك النظرات التي سأقتلع مصدرها، خمسة أشخاص قتلتهم واحدًا تلو الآخر، بسلخ جلدهم واقتلاع أعينهم، أأنا مجنون؟! لك حق أن تقول ذلك ولكني لا أقتل أي أبيض عشوائيًّا بل أقتل كل من يستحق القتل، كل من يقتلنا بنظراته أولًا , عرفت كيف ولماذا اقتل ؟! جيد، أريد حلًّا لتلك الأحلام التي تهاجمني في نومي، اكتب الرد في الورقة الخالية التي في نفس الظرف

واتركها في بريد بيتك، سآخذها، وإياك أن تفكر في نصب كمين لي أو مراقبتي وأنا آخذ الورقة، شكرًا لك

سفاح العنصريين

الرد على الرسالة الأولى:

"سمعت بالطبع عن تلك الجرائم التي ارتكبتها وبنفس طريقة القتل، إن الناس يظنون أنك تقتل لتأكل لحم البشر لا تقتل لتنتقم، ولكن يبدو أن يوم الخميس الساعة العاشرة مساء توقيت مقدس لك لتقتل في نفس الميعاد كل أسبوع، لا أعرف ماذا أقول لك، لا أريد أن أقول لك كلامًا مثاليًا، أو أمرر تلك الجرائم مرور الكرام، كلامهم وخيانتهم ونظراتهم قاسية لأقصى حد، ولكن رد القسوة بالقسوة لا بالقتل، بالعقاب لا بإنهاء الحياة، أما عن الأحلام التي تراوضك ففي نظري أنها من إحساسك بالذنب أو بالخوف من العقاب، والحل الذي يمكن أن يخلِّصك من هذا الحلم لن يكون إلا بأن تعترف لشخصٍ تعرف جيدًا أنك ستنال العقاب منه، ليس بالضروري الشرطة، ولكن شخص يعاقبك، لا أعرف كيف امتلكت الشجاعة لأقول لشخص يقتل البيض بأن يعترف بجريمته وأنا ابيض مثل الذي يقتلهم، لا أملك إلا أن أقول لك، لا تقتل أحدًا فكل شخص تقتله بهذه الطريقة ستنزع منك إنسانيتك بقوة، حافظ على ما تبقى من إنسانية لديك، إرجوك "

د. ويليم باكستون

الرسالة الثانية:

" مرَّ يومان منذ الرسالة الأولى، إني أعيش في جحيم، قلق إلى درجة كبيرة أحاول ألا أنام، ولكن وحش النوم يطبق عليَّ وأنا في أي مكانٍ، وأحلم بنفس الحلم؛ أن الشخص الذي يحقق معي في الحلم يعرف كل صغيرة وكبيرة كأنه أنا، أرجوك ساعدني إني أهلك، وأنا لا أريد قتل أحدٍ آخر ولكن يجب أن أتخلص من هذا الحلم، أما عن سؤالك لماذا أقتل يوم الخميس الساعة العاشرة، إنه الموعد الذي قتلت فيه أخي وزوجتي، وكنت قد أخبرت قبلها زوجتي أني سأقيم في مكان العمل لكثرته، وكنت أنوي أن أفاجئها بهدية، ولكن هما فاجاءاني بخيانتهما، أعدك أني لن أقتل ثانية، ولكن قل لي علاجًا غير الاعتراف.

سفاح العنصريين

الرد على الرسالة الثانية :

"أنت لا تريد إلا العلاج فقط وإن نلته ستقتل من جديد، بدليل أنك لم تتخلَ عن لقبك وكتبته في آخر الورقة (سفاح العنصريين)، وأنا لا أخدعك، أنا قدمت لك العلاج وهو الاعتراف أمام شخص تنال منه العقاب، وكما تقول أنت أن الشخص الذي بحلمك يحقق معك يعرف كل صغيرة وكبيرة عنك، وهي نفسك وضميرك اللذان لم يرضيا عمّا

تفعل، ليس عندي حل آخر، وكما قلت لك من قبل، حافظ على ماتبقى لك من إنسانيتك.

د. ويليم باكستون

الرسالة الثالثة :

"وأنت تقرأ هذه الرسالة سأكون أنا قد شنقت نفسي وستسمع الخبر بعد عدة ساعات، أنا لا أستطيع الاعتراف لسمعة عائلتي وحتى لا يقولون إن السود مجانين يذبحون في البيض، وأيضًا لخوفي من العقاب، ولا أستطيع العيش بقية حياتي في هذا القلق، سأنتحر هذا هو الحل المثالي ولا أملك غيره .

جايمس كوبر

لا يوجد رد .

(١٣)

كل من يحلم بهذا الحلم يموت، معظمهم لا يعترفون بجرائمهم فينتهي بهم الوضع، إما موتى بأزمة قلبية نتيجة الخوف أو منتحرين، وقليل من يعترف بجرائمه، ولكن ينتهي به المطاف إلى الموت أيضًا، وكأنه تحقيق يأتي للموتى فقط؛ لذلك أسميته "تحقيق الموتى".

" المجرمون الذين لم يحاسبوا، يخافون العدل أكثر مما يخافون الموت "

هذه كانت أول جملة في الملف الذي أعدته لتلك الحالات التي أسميتها" تحقيق الموتى ".

يبدو أني سأقدِّم بحثًا واكتشافًا لا مثيل لهما في عِلم النفس المقترَن بالجرائم؛ لذلك سأبدء بإظهار هذا البحث إعلاميًا أولًا قبل أي طبيبٍ شهير أو مؤسسة علمية.

تواصلت مع قنوات إعلامية عالمية ومحلية، قابلت مندوب كل قناة على حدة والكل كان متحمسًا لما سأقدِّمه على شاشتهم باختلاف عدد الدقائق التي سأكون فيها، وحدَّثت حبيبتي وخطيبتي نور -آن ذاك- على إنجازي الذي حققته وعن مواعيد ظهوري في القنوات، ولكن جاء الرد الرتيب الحزين المشجع بكلمات روتينية باهتة، تغيرت كثيرًا معي منذ ما توفى والدها منذ أسابيع.. أقدِّر موقفها، ولذلك أنتظرها. وما إن أنهيت مكالمتي معها، حتى جاءتني حشود من الاتصالات من القنوات التي اتفقت معها لتخبرني أن تم تأجيل مواعديهم معي إلى أجلٍ غير مسمى، كانت صدمة كبرى بالنسبة لي، والاتصال الوحيد الذي جاء للاتفاق على مقابلة لنشر " تحقيق الموتى" كان من شخصٍ يعمل في جريدة نسبة مبيعاتها أشبه بالبحيرة الراكدة اسمها "المراد" الصحفي الذي اتصل بي كان اسمه " نائل فخرالدين " جاءني في البيت، ولا أعرف لماذا منذ ما دلف من باب البيت وكان تعاملي معه في منتهى التعالي والغرور، يمكن لأني كنت أنتظر لقاءَ إعلاميٍ أكبر منه، وتفاجأت أن ما سيدور بهذه المقابلة لن يُنشَر منه حرف.. حتى هذه الجريدة البالية ترفض أن تنشر بحثي رغم محاولات نائل المستميتة لنشرها.

****

- هناك شخص يستقل دراجة يسير في الطريق الذي يؤدي إلى الفيلا، وكما تعرف لا توجد وحدة سكينة في هذا المكان سوى التي نقطن بها، لذلك نحن نتخوف أن يأتي إلينا بشيء مفخخ خاصة أن دراجته بها صندوق مربع بالخلف، ماذا نفعل؟!

أخرجت كلمات أحد رجال يوسف، شوقي ويوسف من خيال قراءتهما للكتاب، استعاد كلٌّ منهما عالمه، وقال يوسف له:

- عندما يقف حاصروه واجلبوه إلى هنا وما معه من أشياء، لاكن بدون أي عنف اتسمعني ؟

أومأ الرجل برأسه وذهب ليخبر الباقي بما قاله يوسف، وبعد دقائق سمعا ضوضاء بالأسفل إلى أن ارتفعت الضوضاء إليهما،

وجدا مندوبي الفتوات يحملون شابًا فوق أكتافهم يلبس طاقية وقميصًا أحمر وسروالًا أسود.

أجلسوه على كرسي وحاصروا أركان جسده بأيديهم، والرجل ينظر بغير فَهم وملامح الفزع تملأ وجهه، هنا قال شوقي بعد ما نظر للرجل مليًّا:

- هل قاومكم هذا الرجل بأي سلاح ؟!

-لا ياسيدي.

- ولماذا حملتوه هكذا وأصدرتم كل هذا الضجيج ؟!

- كي يخاف منا سيدي.

خبط شوقي مقدمة رأسه بكف يده معبِّرًا عن مدى تأثُّره ببلاهة الرجال أمامه وأشاح أليهم بيديه بأن يخرجوا ويتركوه، ابتسم شوقي للرجل وقال :

- لماذا أتيت إلى هنا ؟!

قال الرجل بنبرة خائفة:

- أنا.. أنا جئت هنا لأوصّل طردًا مبعوثًا لـ.. لصاحب الفيلا تلك، أليست تلك فيلا الدكتور شوقي نجيب؟

- نعم هي، أين الطرد ؟!

فتح أحد الرجال الباب بقوة وهو يمسك بحذر شيئًا مربّعًا نحاسيًّا:

- يا سيدي وجدنا هذا الصندوق في صندوق الدراجة ونعتقد أنها قنبلة.

أخذ شوقي منه الصندوق غير مبالٍ بما يقول وهمَّ بفتحه بسرعة، كان صندوقًا نحاسيًّا متوسط الحجم ملفوفًا بطريقة الهدايا، كتب على كارت كان داخله " كل عام وأنت طيب" أوه صحيح اليوم ١٥ إبريل عيد ميلاد شوقي .

ابتسم للحظة ثم عاد يعبث في الصندوق، فوجد داخله قرصًا مدمجًا أو باللفظ السائد "CD " نظر شوقي لل "CD" ونظر أمامه وجد الفتوات يختبئون , بعضهم خلف الفراش وأحدهم هرع إلى خارج الغرفة منتظرًا أن يسمع صوت انفجار، وواحد اختبأ خلف عامل البريد وينظر بطرف عينه لشوقي، نظر شوقي ليوسف نظرة راجية أن يرحمه من غبائهم وبلاهتهم، فصاح فيهم يوسف بالخروج وأن يتركوا عامل البريد يخرج سالمًا بدون إزعاجه.

أخرج شوقي " لاب توب" من مكتبه وأدخل الـ " CD " بداخله وجد أنه يحوي مقاطع فيديو شغَّل إحداهم، وجد رجلًا بجلس على كرسي يصرخ ويهتز بعنفٍ، لابد أن الكرسي موصل بالكهرباء؛ لذلك تحتل

الاهتزازات جسده وزاوية تصوير الرجل تبدو لكاميرا مراقبة في أعلى الغرفة، والغرفة محاطة بمرايا، فتح ملفًا آخر، وجد رجلًا مثبتًا من أطرافه على الأرض ورجلًا آخر يصبُّ عليه سائلًا ما إن لمس جسد الرجل – المثبت على الأرض – حتى بدأ يصرخ والدخان يملأ جسده كأنه سكب عليه.. جيرًا حيًّا، رغم الدخان الذي يملأ الغرفة إلا أننا نستطيع أن نرى أجزاء جسده المعرّاة من الجلد واللحم.

أغلق الفيديو بسرعة غير محتمل مايراه، بقى ملفان آخران فتح أحدهما، كان نفس زاوية تصوير الكاميرا، ولكن لغرفة صغيرة أشبه بالممر يجلس شخصان على كرسيين أمام لوحٍ زجاجي مستطيل يبدو أنها هي التي تطل على الغرفة التي رأينا بها مقاطع التعذيب السابقة وهؤلاء من يديرون عرض التعذيب أمامهم، فأول مقطع كان بجانب الشخصين الجالسين، شخصٌ يتحكم في لوح أمامه يبدو أنه من يدير احتلال الكهرباء لجسد الرجل الذي كان في المقطع الأول، والمقطع الثاني نفس الشخصين الجالسين يأمران أحدهم يحمل دلوًا بأن يدلف إلى الغرفة، بالتأكيد هذا الشخص الذي سكب الجير الحي، قام أحد الرجال الجالسين المديرين لعرض التعذيب ذاك من مكانه، ونظر للكاميرا التي يشاهدان الآن منها مقاطعها، أوقف فجأة شوقي المقطع ونظر للرجل مليًّا، جحظت عيونهما وتوقف الزمن بالنسبة لهما كأن أحدهم اصطحبهما لرحلة للفضاء بسرعة الضوء، الرجل الذي ينظر للكاميرا هو.. شوقي !! إنه كان من يدير – والشخص الذي معه – عمليات التعذيب تلك..

- إنها رسالة تهديد واضحة لك يا شوقي، من ذاك الذي يسمى عامر.

- يجب أن نكمل الكتاب بسرعة.

- أين توقفنا ؟!

- عند الصحفي نائل فخرالدين.

أعرف أنك لن تصبر على ما مرَّ به شوقي – قبل أن يفقد الذاكرة - منذ أن رفضت جريدة المراد نشر بحثه إلى أن سافر إلى أفغانستان وإلى الاجتماع الذي دار بينه وبين عامر إبراهيم وأبو عابد واللواء رفعت سيد ناصر، والسر الخطير الذي أخبرهم به وانتهى بموتهم بعد ساعات بمعرفتهم به، وأيضًا لأنهم مترقبين لفك شفرة الورقة الدموية، لذلك لن نقرأ نَص الكتاب حرفيًّا، بل سنذكر الأحداث تلخصيًا، لنبدأ.

(١٤)

بعد أيام تتأرجح بين الفخر والعزة بالنفس إلى الاكتئاب واليأس لشوقي، تلقى اتصالًا من طبيب يدعى "احمد سالم ناجي" طبيب نفسي أيضًا، طلب أن يقابل شوقي بخصوص تحقيق الموتى، فوافق شوقي على الفور، كان يتوقع أن يأتي الطبيب هذا ليساعده في نشر ذاك البحث، أو يكون من الأطباء الذين يحبون أن ينسبوا أعمال غيرهم إليهم من خلال مبالغ من المال – على حسب الشئ المُشترى - ولكن لم يتوقع أبدًا أن يقول له – الطبيب أحمد سالم - أنه يريد أن يستخدم بحث تحقيق الموتى في استجواب المجرمين في أمن الدولة !! نعم تلك الدهشة التي ترتسم على وجهك شبيهة بوجه شوقي الآن لذلك قال له :

- ألا ترى أن ذلك استغلال غير صحيح للعِلم، وقد تحدث نتائج كارثية؟!

- اسمعني ياشوقي، لن أقول لك هذا من أجل مصر وكل شيء لأجل مصر مباح، ولكن فكر معي في كم من القضايا المهمة ستنتهي بالعدل

وكم شخصًا سنرحمه من هذا التعذيب الوحشي الذي يُمارَس ويطول المذنبين والأبرياء أيضًا، كم الصراخ ستمنع وكم الاأسر لم تروع،

- لكن إن لم تنتهِ بالعدل ستنتهي بموت المتهمين، وقل لي كيف سنجعل تلك الأحلام ترتسم في نومهم؟!

- هذا الذي جئت لك اليوم لنصل إليه.. كيف نزرع هذا الحلم في نومهم؟

حتى لو أتيت لك بفكرة، من سيسمح لنا بفعل ذلك؟!

ابتسم أحمد وقال:

- الجميع

شوقي ظلَّ صامتًا وأردف أحمد :

- فكر جيدًا واتخذ قرارك، وعندما تهتدي إلى القرار المناسب اتصل بي.

قالها وهو يعطيه ورقة كتب رقمًا عليها وكتب فوق الرقم " د. أحمد سالم ناجي " ثم غادر وترك شوقي محاطاً بالحيرة والتردد، هرب من نظرات والدته المتفحصة لحالته بسؤاله عن أخته " حنين " فجاوبته أنها بالخارج مع بعض زملائها، ودلف لغرفته قبل أن تسأله أي سؤال، لم يجد ما يفعله ألا أن ينظر لأوراق البحث نظرات بلا معنى أو هدف، وقرر أن يشارك ذلك خطيبته نور في اتخاذ قرار حيال هذا الأمر واتصل بها من هاتفه الخلوي، ولكنه لم يعرف أن هذه ستكون آخر مكالمة بينهما للأبد.

(١٥)

كان هم شوقي الشاغل هو الوصول لمطار القاهرة بسرعة قبل أن تسافر نور – خطيبته - إلى أمريكا كما أخبرته في المكالمة؛ لذلك نراه الآن في سيارته متأففا باستمرار، يصيح في السيارات التي تعطل المرور وتعطل وصوله لهوائه وكنزه الثمين، وصل شوقي ودلف إلى المطار يعدو مسرعًا وهو يصيح في نور التي قاربت أن تتجاوز منطقة جوازات السفر، توقف شوقي لاهثًا وهو يتحدث إلى نور مُقطع الكلمات :

- ما هذه الـ. السفرية المفاجئة يا نور.. ولماذا لم تخبريني قبلها؟! ومتى ستعودين؟!

خفضت نور رأسها ولم تتكلم؛ فنظر شوقي إلى والدتها بجانبها وهي تنظر إليه نظرة شفقة.

بعد وقت ليس بالقليل قال شوقي:

- ستهاجرين يا نور؟ ستهاجرين ولن تعودي..؟

تنحت نور جانبًا محافظة على صمتها، حتى قال شوقي وضربات قلبه تعلو:

- أنا عندما أحببتك، أحببتك لجمالك، ليس ما يرونه الناس بأعينهم، لكن الجمال الذي اكتشفته أنا بقلبي وروحي، لذلك سترحل الناس وأبقى أنا مكسبًا، أتتذكرين عندما قلت لكِ هذا الكلام ماذا قلتِ؟ قلتِ أنك لن تتركيني أبدًا، والآن ستهاجرين أنت وأخسر أنا..

- أقسم بربي إنه ليس بيدي، ولابد أن تعرف أنني مازلت أحبك.

- تحبينني؟ ولماذا ستتركينني إذًا؟ أخبريني ما المشكلة، ربما أمكنني حلَّها.

- مشكلتي ليس لها حل، صدقني هكذا أفضل..

- والدك رحمه الله، إذا كان على قيد الحياة لم يكن ليرضَ بما تنوين عليه.

- صدقني يا شوقي هكذا أفضل؛ اتقاء لشر كبير، طال والدي وكان ليطولنا معه.

أمسكت والدتها بيديها لتصمت، فعرف شوقي أن لا رجعة في قرارهما، فرحل دون كلمة أخرى، ولكن نور ظلت تنظر عليه دامعة العين حتى اختفى عن نظرها تمامًا .

(١٦)

الظلام يخيِّم على غرفة شوقي إلا من بعض خيوط الشمس التي تتسرب بين ثنيات ستائر شرفته:

- لايعجبني حالك يابني، تغيب طول الليل وتأتي هنا لتنام النهار كاملًا، ثم ما هذا الظلام!! افتح الستائر، افسح مجالًا لنور ربنا يدخل الغرفة .

كانت هذه من والدته، عدل شوقي جسده على فراشه بتثاقل وقال :

- نور ربنا ليس في نور الشمس فقط، نور ربنا يمكن أن يوجد في شخص يجلس في غرفة مظلمة، نور ربنا داخلنا إذا فتحنا له أعماقنا لينطلق وينير العقل والروح، ولا أعتقد أن نور ربنا داخلي سيُترك له العنان وأنا أجلس مع أشخاص يطبقون الظلام في صدري، الوحدة أفضل بكثير، لكن أنا لدي عقدة من نور الشمس، يشرق على أُناسٍ

نكرههم ونراهم مرغمين، واُناس أخرين موجودون تحت نور الشمس نتحسر أننا غير قادرين أن نراهم أو نحدثهم.

المشكلة ليست في نور الشمس، المشكلة في أناس لا يستحقون إشراقة الشمس عليهم يابني.

معكِ حق

(١٧)

دخل الدكتور أحمد سالم ناجي مدرية أمن (.....) فسأله أحد رجال الأمن على البوابة :

- من تريد ؟!

- اللواء رفعت السيد ناصر

تحدث في جهاز اللاسلكي فسأله مجددًا:

- من حضرتك ؟!

- الدكتور أحمد سالم ناجي

تعالى الصوت في اللاسلكي قائلًا :

- أدخله بسرعة بدون تفتيش

- علم وينفذ.. تفضل حضرتك

وسار – أحمد ناجي ورجل الأمن - في ممرات المدرية إلى أن وصلا لغرفة اللواء فدخل، وبعد ترحاب متبادل بينهما تحدثا عن شوقي واكتشافه وقال اللواء لأحمد مستفسرًا:

- أتظن أنه سيوافق ؟!

- نعم بالطبع، فرغم أن شوقي يتظاهر دائمًا بالمبادئ والأخلاق والمثالية إلا أنه بداخله شر لا مثيل له في تفكيره العبقري، ولكن يحتاج إلى سبب يتوجه بتفكيره إلى ما نريد، وترك حبيبته له أجَّج بداخله نوعًا من البرود واللامبالاه واللاشعور، باختصار إن الوحش بداخله وينتظر من يوقظه وقد أخذ أول الطريق لاستخراج أسوأ بترول بداخله.. هو لا يريد أن يتبع الشيطان، ولكن كلنا نتعاون مع إبليس يوميًا.. ولكننا نُحرّم قول ذلك..

ازدرد ريقه ورسم ابتسامة ثقة وأكمل:

- شوقي هذه الأيام يقضي لياليه مع عاهرات في فيلته التي على طريق القاهرة – إسماعلية الصحراوي، ثم يعود لبيته مع أمه وشقيقته في المعادي ينام نهاره ويصحى ليطمئن عليهما ثم يقضي ليلة أخرى، والآن هو على سريره ينكح عاهرة أخرى.

- لنذهب إليه إذًا، فإذا تركناه هكذا فتأخذ عقله شهوة النساء وربما الخمر والمخدرات لاحقًا، ونحن نحتاج لعقله، اتصل به الآن وقُل له أننا قادمان له.

- لا سنذهب له دون اتصال، حتى يقول لنا قراره دون أفكار مرتَّبة مسبقًا.

- جيد، سآمرهم بتجهيز سيارة لنذهب بها الآن.

(١٨)

وقف – الدكتور أحمد واللواء رفعت – أمام بوابة فيلا شوقي، ففتح الخفير جزءًا من البوابة ووقف في فراغه وسألها:

- ماذا تريدان يا "بهوات" ؟!

دفع اللواء رفت الغفير ودلف بجسده الضخم مُزيدا الفراغ الذي فُتح في البوابة، ناداه الغفير مرارًا وتكرارًا فلم يجب عليه اللواء، دخل الدكتور أحمد وأسند يده على كتف الغفير، وقال بإشفاق مصطنع :

- هكذا هم اللوءات دائمًا متغطرسون ويظنون أن البسطاء لا قيمة لهم، أتعرف لو أحد مكانك شجاع أوقفه مكانه ورفض دخوله لربما ضربه برصاص مسدسه الميري أو ربطه بسيارته وجره وسط الصحراء، أو أعاد له مشهد سعاد حسني مع فرج في فيلم الكرنك، لحُسن حظك أنك لست شجاعًا، ألست كذلك؟!

أومأ الغفير برأسه، إيماءة خائفة أذاعت في وجهه ملامح الذعر، فهو يهاب أمين الشرطة الذي بحارته الفقيرة فما بالك بلواء!!، ابتسم له الدكتور أحمد ولحق باللواء رفعت لداخل الفيلا، وصلا لصالة الفيلا، وجدا فتاة مكتملة الانتشاء تنزل على درجات السلم، فغمزت بعينها لهما فضحك اللواء في بلاهة، وخرجت من باب الفيلا مصدرة ضحكة خليعة رددتها جدران الصالة، ووقفت مع الغفير وأعطاها مالًا لم يقدروا قدره، يبدو أن الغفير يعمل قوَّاد ساقطات بعد العِشاء، صعدا إلى الطابق الثاني – والأخير – فوجدا غرفتين إحداهما بها نور مضاء، فدلفا في الثانية فوجدا شوقي متجرد من ملابسه تمامًا يدخن سيجارة :

- إني لا أعرفك كثيرًا، لكني على الأقل أعرف أنك لا تنام مع عاهرات أو تدخن حتى.

تفاجأ لوجدهما فهمَ بارتداء ما يستره من ملابس داخلية، ووقف أمامهما وملامح الاستنكار لوجودهم بدون إذن تملأ وجه، صاح فيهما – مع أنه لا يعرف اللواء – وألقى ببعض الشتائم عليهما، فوقف اللواء محتقن من كلماته فلم يجرؤ أحد على نعته بتلك الألفاظ من قبل، بينما قال الدكتور أحمد بهدوء :

- جئنا كي نعرف قرارك في تحقيق الموتى.

فجأة توقف شوقي عن ثورته، وقال كأن أسباب ثورته كلها تلاشت :

- موافق

ذهل اللواء لموافقة شوقي لم يتوقع ذلك أبدًا، بينما قال الدكتور أحمد قاطعًا كل الأفكار التي تتسلل لعقليهما :

- إذًا سنبدأ عملنا في الصباح، وبالطبع مادام قررت المشاركة فإنك قد وصلت لخطة إحكام تحقيق الموتى داخل عقول من نريد، ستسمع منك غدًا قيادات كبيرة في الداخلية فرتّب أفكارك وكلامك وأمثلتك جيدًا، وستأتي لك غدًا سيارة تقلك إلى المكان المطلوب .

نظر شوقي إلى اللواء وكأنه يريد أن يعرف شخصيته التي كان يجهلها فقال الدكتور أحمد:

- اللواء رفعت السيد، هو من تحمَّس لفكرة أن تعمل معنا بعدما أخبرته عنك وعن بحثك، وهو الذي أقنع القيادات أيضًا.

فنظر كلاهما لبعضهما ليتبادلا ابتسامة مبتورة، تركاه، وغدًا سيقابلهما.

(١٩)

خرج شوقي من المكتب - الكبير- الذي كان يجتمع فيه مع قيادات الداخلية، نظر إليه الدكتور أحمد سالم بلهفة وشوق لما آل إليه الاجتماع فقال له شوقي :

- أخبرتهم بالطريقة البسيطة لذلك الأمر، ولكنها صعبة التنفيذ بعض الشيء، هي تخدير الشخص المطلوب في معاد نومه – ومن معه إن وُجِد أشخاص آخرين يقطنون معه – ثم يتم نقله إلى مكان به غرفة تحقيق مجهزة وشخص يسأله عن جرائمه حتى ينهار تمامًا، ثم أخذه إلى بيته مرة أخرى على أنه حُلم – بعد تخديره مجددًا -، في الغالب سيموت قلقًا من ذلك، نسبة ضئيلة تقول إنه سيأتي ليعترف.

أحُبط الدكتور أحمد لآخر جملة فقال :

- ولكن إن مات فذلك يعني أن ما نفعله لا قيمة له إطلاقًا.

- لا..

قالها شوقي فنظراليه الدكتور أحمد منتظرًا أن يكمل :

- أنا قلت ذلك لكي يرفضوا أن أعمل معهم، إن من يموت قلقًا هو شخص يحلم بكل خطأ كبير وصغير في حياته، أما من يُحقق معه في جريمة بعينها لا يموت غالبًا، وتزيد نسبة أن يعترف بجريمته.

- أأنت احمق؟! أتقول لهم كلامًا كاذبًا، أتتوقع حين يعرفون أنك تكذب سيتركونك وشأنك ؟!

أجلب لي شخصًا يعرف تحقيق الموتى مثلي كي أخاف أن يعرفوا منه.

صمت لبرهة وأكمل:

- أنا أعرف أن ذلك خطأ ومبرراتك التي قلتها لي لم تنفَّذ لقناعتي ولم تنَل منّي شيئًا، أنا أريد أن أؤذي وأن أخرج الشر الكامن بداخلي، أن تخرج من فطرتك من الخير إلى الشر أمر صعب، لذلك أحاول جاهدًا ألا تنفرط روحي وتسلك سبيل الشر.

- ماذا دهاك يا شوقي، أتركُ نور لك جعلك متخبِّطًا إلى هذا الحد؟!

قال بلهجة هادئة :

- إنني أحببت بكل قوّتي، بكل شعور لدي، وصل ألم حبي إلى ذروته، اختبرت نهر الحب بكلتا قدمي فغرقت.. لذلك لم تتبقَ لي أي قوة لشعر بأي شيء بعد ذلك.. حتى الشعور بالحياة.. أنا ميت لم يتحلل بعد..

تنهد تنهيدة حزينة من أعماقه الملتهبة:

- الحب هو اختيار مابين نفحة من جهنم أو نعيم الجنة، وقد نلت من جهنم عواصف مشتعلة بداخلي، فلأذق الآن نعيم الجنة حتى لو بالشر.

- أنا لا أفهمك أطلاقًا.

- لك الحق، فكلامي أصبح أسوأ ترجمة لرواية عالمية مؤلمة داخلي.

آراد أن يكمل، ولكن قاطعه اللواء رفعت السيد قائلًا بحماسٍ:

- القيادات وافقت على اقتراحك كعمل مبدئي، سيكون كل شيء مجهزًا كما تقول للأشخاص الذين سيرسلونهم لك، والتجربة ستكون لمدة شهر على ٣ أشخاص فقط، فلتبدأ تجهيز عملك من الآن.

(٢٠)

مرَّ الشهر بتجاربه ونتائجه، وفي النهاية الفشل بقى الصديق الحميم لدى التجارب، والسبب واضح أن جميع المتهمين الذين جُرِّب عليهم الأمر أبرياء، وإن اتهامهم نابع عن سلطة لا تعرف المهنية والعدل إلا أنهما كلمات يلقون بها في برامج "التوك شو" حتى يطمئنوا مؤيديهم - الذين حتى وإن باحوا بأن نواياهم تسلك طريق الشر لظلوا يؤيدونهم - ، لذلك غضب قيادات الداخلية من فشل التجربة وخاصة أنها تكلفت مبالغ طائلة من بناء غرف تحقيق خاصة لتنفيذ التجارب غير الأشخاص الذين اختارهم بدقة ليقوما بدور المحقق، ونيران الغضب نالت اللواء رفعت ببعض لهيبها ثم نقلت نار جراحها إلى الدكتور أحمد سالم الذي أخبر شوقي بضرورة اجتماعهم – شوقي والدكتور احمد واللواء رفعت – لإيجاد حل يعيد نيران غضب القيادات إلى دارها، فهم جالسون أمامنا الآن في مكتب اللواء رفعت، فافتتح الدكتور أحمد الكلام:

- لا عيب في الفشل، العيب في عدم القيام من الفشل والمحاولة من جديد.

ابتسم شوقي في سخرية وقال:

- أكنت تستمع إلى أحد أساتذة التنمية البشرية، وجئت تقول ما سمعته هنا؟!

ردَّ الدكتور أحمد بغيظ:

- أنا أتحدث عن فشلك الذي لحقت نيرانه بنا يا شوقي.

قال شوقي ببرود:

- أنا لم أفشل إلا بسبب المتهمين الذين اختارتهم الداخلية، هم أبرياء وكل تقاريرهم ملفقة، حتى بعد الثورات التي قامت عليهم والأنظمة التي تغيرت لم يغيروا من سياستهم.

قطع اللواء رفعت صمته قائلًا بحدة وبصوته الغليظ :

- ثورات!! أي ثورات، إنها مؤامرات، قيام ثورة في بلد تلو الأخرى بدعم خارجي أليس ذلك مخططًا لتقسيم البلاد، وأنت ترى من حولنا تفتت أوصاله ونحن لازلنا متماسكين، إنها مؤامرات ألا تملك عقلًا؟!

- ووجود أنظمة زادت فقر وتخلف شعوبها في جميع البلاد أليست مؤامرة أيضًا!! وطبقة خاصة لها سلطة مطلقة تبطش وتظلم بأداة هزيلة العقل مثلكم، أليست مؤامرة!! طريقتكم انتهت صلاحيتها في الدول منذ زمن سحيق، لذلك تبحثون عن طريقة أخرى، مثلي .

- طريقتنا هذه هي التي جعلتك أنت وأمك وأختك تعيشون في أمان طوال الوقت، يجب أن نفعل ذلك حتى نحفظ الأمن والأمان

- ومنذ متى والخوف والظلم إحساس بالأمان!!

قاطعهما الدكتور أحمد، مُنهيًا الخلاف السياسي الذي نشب بينهما:

- نحن لسنا في مناظرة سياسية، إذا فكرنا معًا سنرتقي معًا، وإذا ظل هذا الخلاف حديثنا فسوف ننحدر في القاع ولن نتحرك منه.

هدأوا جميعًا، فأردف موجهًا حديثه لشوقي :

- ياشوقي، باختصار وبكل صراحة، نريدك أن تجعل المتهمين الأبرياء يوقنون أنهم مجرمون، وبالطبع بما أنك كنت طوال الشهر ترى انطباعات المتهمين وردود أفعالهم والقصور بالتجربة، فإنك تعرف طريقة تجعلهم يصلون لهذا اليقن، نريدك أن تقول لنا أفكارك.

ضحك شوقي بهسترية مفتعلة، حتى قال بابتسامة ساخرة :

- وأين كلامك عن صرخات وآلام المتهمين الذين تهتم بأمرهم.. سأبعد عنك هذا الإحراج الآن، أتريد أن تعرف كيف نفعل هذا، سأخبرك..

زاد من صمته حتى يثير شوقهما لكلامه، حتى أحس بنضج إثارتهما فقال :

- صناعة الأحلام.

- ماذا ؟!

- صناعة الأحلام، القصور في التجربة ليس فقط في أنهم أبرياء، بل أيضًا لأنهم واجهوا تلك التّهم بالفعل من قِبَل جهات التحقيق، وهذا لن يثير قلقهم أبدًا، ولكن هذا جاء بنتيجة أنتجت فكرة ما برأسي.

التزم الصمت ثانية، ولكن اللواء رفعت قال بحدة:

- أكمل ولا تقلقنا نحن حتى لانقتلك أنت.

أكمل كلامه وهو يعلّق بشفته ابتسامة لاستمرار استفزازه :

- النتيجة أن بعض المتهمين قاربوا على تصديق أنهم فعلوا الجرائم وهم في الأصل أبرياء، ولكن ما أعاق إكمال ذلك هو التحقيق الذي تم معهم في الواقع قبل تحقيق الموتى، فإذا نفَّذنا تحقيق الموتى قبل أي تحقيق أو على أسوأ تقدير بعد تحقيق انتهى ببراءتهم، سنستطيع أن نلصق الجرائم المزيَّقة بيقينهم.

حكَّ الدكتور أحمد ذقنه وهو يفكر، نظر إلى شوقي نظرات تمنى لو تمكنت من اختراق رأس شوقي لتجلب أفكاره وتغرسها في أرض ذهنه واستيعابه، فقال له :

- هل هناك أي إسناد علمي على ما تقول؟!

- نعم، فلو أخذنا أحد تعريفات الأحلام العلمية على محمل الجد ستفي بالأرض الخصبة التي نبدأ عليها وهي "أن الاحلام مزيج من كل ما رأيناه وسمعناه ومررنا به"، فإذا عكسنا الأمر وجعلنا أحداث غير حقيقية حلم بها الشخص، سيترجمها العقل على أنها أحداث مرَّ بها بالفعل، وإذا كانت جرائم سيوقن أنه فعلها في أرض الواقع.

- ولكن يا شوقي هذه فكرة سطحية للغاية لا يمكن الاعتماد عليها.

- لا هذه فكرة بسيطة، والبساطة هي سر الإبداع وليس التعقيد.

- ولكن إن أكملت تعريف الأحلام الذي ذكرته فهو "أن الأحلام هي مزيج مما رأيناه وسمعناه ومررنا به، يقدّمها لنا العقل في قالب جديد متوافق مع الحالة النفسية " ويمكن أن يفسره المتهم على أنه قلق منه لا أكثر انطبع على أحلامه.

- أفهم ذلك، ولكن إن واجه هذه التهم وجهًا لوجه في أرض الواقع وتكرر الحلم لمدة كبيرة سيؤثر ذلك على تفكيره وقناعاته.

وضع الدكتور احمد رأسه بين يديه كأنه في صومعته الفكرية حتى خرج منها مستفسرًا:

- ألم تقل أننا لن نحقق معه طول فترة التجربة على الشخص !!

- ومن قال أننا سنحقق معه بالأساس، سيكون مريضًا نفسيًّا.

لمعت عيناه وازدرد ريقه وأردف:

- تخيل أنك في مستشفى فخمة للغاية تحس بالراحة بداخلها، فتتحول هذه الراحة إلى خوف بعدما يخبرك الطبيب أنك كنت متهمًا في جريمة ما، وأنه طبيب نفسي يعالجك من إنكارك المستمر لهذه التهمة التي اعترفت بها سابقًا، ولكن عقلك الباطن جعلك تظن أنك لم ترتكب شيئًا خوفًا من العقاب، ومع رشوة بعض الأصدقاء الذين على صلة بك حتى يقولوا مانريد أن نُلصق بعقلك، ومع جلسات

العلاج تكون هذه الأحلام مطبقة على عقلك، هل تستطيع أن تصمد أمام هذا السيل العنيف من الأحداث المتلاحقة ؟!

صفق الدكتور أحمد لما قاله شوقي، ونظر إليه بحماس وأراح ظهره للكرسي وأزاح بتنهيدة طويلة كل القلق الذي بداخله، ولكن اللواء رفعت قال بقلقٍ بعد تفكير طويل:

- معنى ذلك أننا سنبني لك مستشفيات خاصة، وبها مرضى "كومبرسات " مع المتهم، أتعرف كم تكلفة ذلك أيها المعتوه؟! بالطبع لن توافق القيادات على ذلك مهما كانت النتيجة.

هنا بدأ قلق الدكتور أحمد يرتفع من أعماقه لتغزو وجهه، فقال شوقي بهدوئه المعتاد :

- سيوافقون يا سيادة اللواء، لسبب بسيط، أن الثلاثة متهمين الذين أجريت عليهم التجارب هم أُناس ذوو شأنٍ كبيرٍ في المجتمع ووراءهم حيتان ليحموهم، وأيضًا أمامهم حيتان آخرين يريدون الخلاص منهم، أتظن أنه لو كان شخصًا فقيرًا ومعدمًا كنتم ستفعلون ذلك معه، لا بالطبع التقارير مجهّزة والتهم ملفّقة، وحتى لو نزلت معجزة من السماء لتبرئته، ستكذّبون المعجزة وتسجنونه أيضًا،

- حتى لو كانت هكذا . هذه تكلفة ضخمة للغاية، إذا كان مجرد غرف للتحقيق كلفتنا الكثير فما بالك بمستشفيات ومرضى غير حقيقيين.

- لا ليس مرضى فقط، بل طاقم طبي كامل للمستشفي من أطباء وممرضين وممرضات، وأيضا لا تنسَ قبو المشفى الذي سنجعله غرفًا للتحقيق وتنفيذ التجارب.

قال اللواء بنفاذ صبر:

- لماذا سيدفعون هذه المبالغ بالأصل، أعطِني سببًا واحدًا مقنعًا؟

- الحيتان الذين يريدون الخلاص منهم، ببساطة سيكون هناك وسيط، مابين هؤلاء الحيتان وأي أحدٍ من القيادات يخبره أننا سنتخلص من الشخص الفلان دون أي جلبة أو أن يظهر في الصورة، ولكن ادفع المال مقابل هذه الخدمة، سيدفع دون ذَرَّة تردد، وهكذا أصبح "بحث تحقيق الموتى" مشروعًا استثمارِيًّا يجلب الخير لمصر ولدخلها القومي، وسننال نحن الكثير من المال، غير رضاء الكثير من قيادات الداخلية وحيتان البلد، ولا تنسوا أن كل شيء من أجل أمن وأمان مصر.. مُباح..

ابتسم ورمقهم في استمتاعه بإقناعهما:

- موافقة بالإجماع

(٢١)

بُنيت مستشفى كما خطط شوقي، وأخرى تحت الإنشاء، كانت أهم مواصفات المستشفى هي وجودها في منطقة صحراوية منعزلة، ومن ثم مواصفات جودة المستشفى والطاقم -المزيَّف- العامل بها وأخيرًا غرف التحقيق في الطابق السُفلي، أو إن أردت الإيجاز والدقة معًا، المستشفى التي أفاق بها شوقي بعد حادث القرية، وللعلم هذه ستكون المستشفى الثالثة التي سيتم بناؤها قريبًا، بعد موافقة قيادات الداخية على ذلك الأمر واعطوا له الأموال اللازمة للبناء، أضافوا بعض الامتيازات عن المرة السابقة، في اختيار المتهم الذي يريد التجربة عليه، واختيار الطاقم الذي سيعمل معه، وضاعفوا المدة لثلاثة أشهر كاملة، لم يكونوا واثقين بشوقي بقدر مايثقون أنه يريد أن ينجح في ذلك ويثبت نفسه؛ لذلك اطمأنوا إلى أنه سيختار المتهم المناسب الذي يملك حيتان يساعدونه وحيتان آخرين في مواجهته -على حسب تعبيره

-، وبالفعل نجح شوقي بعد أسابيع قليلة في تجربة المتهم الأول، زادت نفوذ شوقي وثقته بنفسه، ثم المتهم الثاني فالثالث، كأنهم ينفلتون من يقين عقلهم إلى يقين شوقي الخادع الذي أتقنه ببراعة، فأصبح الدكتور أحمد سالم – الذي أصبح مدير أعماله - يتابعه بدقة بعمله حتى كاد يتقنها مثله، كان شوقي قد أنهى التحضير لاستقبال المتهم – أو الضحية إن صح التعبير – الرابع، فدلف الدكتور أحمد إليه في مكتبه في المستشفى، وبعد حديث عن تفاصيل الضحية الرابعة وكيفية التعامل معه، قال الدكتور أحمد:

- هناك عمل إضافي لنا بالنسبة لتحقيق الموتى، وسيكون أكثر ربحًا من الذي نعمل فيه الآن.

تباينت الحيرة على وجه شوقي، ليكمل الدكتور أحمد:

- عامر إبراهيم، هذا هو الشخص الذي عرض عليَّ الأمر، يريدنا أن نعمل معه مثلما نعمل مع أمن الدولة، ولكن بطريقة مختلفة، باختصار يريدنا أن نجلب أشخاصًا لنقنعهم أنهم يرتكبون جرائمهم، -

- أوضِّح أكثر

- بمعنى أنهم عصابة دولية لتجارة السلاح، لهم جرائمهم ولهم أشخاص مرصودون من قبل الإنتربول الدولي والمخابرات العالمية، ببساطة هم يريدون أن نجلب أشخاصًا لا علاقة لهم بهم لأن يقتنعوا بأنهم أفراد في تلك العصابة وأنهم قاموا بجرائم، أعطاني فكرة

سطحية عما يريد عن عملنا معه، وأيضًا المبلغ الذي سيعطينا إياه نظير كل شخص.. ١٠٠ ألف دولار.

- مبلغ ضخم بالفعل وأضعاف ما نحصل عليه هنا، ولكن عصابة دولية في تجارة السلاح لا تستطيع أن تجبر شخصًا على الاعتراف بجرائمه أمام المخابرات، لا أصدِّق هذه الحكاية، إن نفوذهم أكبر بكثير من أمن الدولة نفسها !!

- قُلت له هذا بالفعل، قال إنهم جربوا ذلك ونجح في البداية، ولكن داخل السجن يكون الشخص مزيف الجرائم قد يغيِّر لأقواله في أي وقت ويفضح اللأمر، ولأن من الأمن أن يكون الشخص على اقتناع تام أنه فعلَ تلك الجرائم، بالطبع بتحقيق الموتى.

- بدأت أقتنع بذلك، ولكن قبل أي شيء أريد مقابلة عامر إبراهيم هذا.

- لقد حدد معاد لنقابله غدًا، سننتظره في فيلتك ثم سيرسل أحد رجاله ليحضرنا في مقره في مصر، استعد فالأحداث تتسلسل بسرعة فائقة وقد تسرع العدو أكثر فكن مستعدًا دائمًا.

(٢٢)

أتتذكر المكان الذي اختطف فيه "عمار عامر إبراهيم " شوقي ويوسف؟!، إن تذكره فابدأ العمل بنسيج خيالك بأن يصوغ هذه الصورة..

شوقي والدكتور أحمد يدخلان معصوبي العينين، فيجلسهُما على كرسيين ويعيدون إليهما تدفق الضوء بنزع العُصابة من على أعينهم، وأمامهم يجلس عامر إبراهيم ويقف بجانبه ابنه عمار، ويرتكز رجالهما حاملين الأسلحة الآلية في أركان المكان – أو المخزن مرتفع السقف إن أردت الدقة - ، اعتدل كلٌّ من شوقي والدكتور أحمد في مجلسهما محاولين استعادة بعض من الوقار بعد الطريقة التي جُلبا بها، افتتح الحديث عامر إبراهيم بتوجيه كلامه إلى شوقي :

- كي لا نطيل في المقدمات، بالتأكيد أنك قد عرفت من الدكتور أحمد ماذا نريد ولماذا، أسمِعني ما يمكنك أن تقدمه لنا.

أحس شوقي أن عامر يتعامل معه بتعالٍ زائد، فأراد أن يبتهل مقدمة تزيده مكانته قليلًا فقال:

- إن الأمر يختلف كثيرًا عما كنا فيه مع أمن الدولة، لذلك حاولت الوصول لفكرة لبناء ما تريد من نتائج ببحثي، وفي ساعات قليلة منذ ما عرفت بموعد مقابلتك وأنا أفكر في كيفية ذلك، ووصلت لنتيجة مبدئية ولكنها أساسية.

صمت للحظة ليثير الفضول كما اعتاد وقال :

- في أمن الدولة كنا بصدد قضية معينة، لكن أنت تطلب أن يقتنع أي شخص بأنه فرد منكم، وهذا يعني أننا سنقنعه بحياة ليست بحياته، يعني جذور من الأحداث والذكريات الممتدة طوال سنين ليست بالقليلة، وهذا يدفعني إلى التفكير في السيكودراما لكن في الأحلام.

قاطعه عامر:

- ماذا يعني الذي قلته ؟! لا أريد تعريفات غامضة، أريد شرحًا يُطبَّق على أرض الواقع.

- حسنًا، في البداية يجب أن نعرف ما هو السيكو دراما بإيجاز، هو نوع من أنواع العلاج النفسي يجمع بين الدراما وعلم النفس، ما يهمنا المشاكل الكبيرة التي يعالجها هذا العلاج؛ كالهروب من جريمة قتل أو ما إلى ذلك، يتكون هذا العلاج من مخرج – وهو الطبيب المُعالج -

ومجموعة من الممثلين والمريض، ويقوم المريض بأدوار مختلفة في هذه التمثيلة – المصطنعة لعلاجه – حسب رؤية الطبيب المُعالِج له، كيف سنسيّس هذا العلاج لخدمتنا، المكان سيكون في مستشفى مثل التي أنشأناها من قبل مع أمن الدولة، المريض هو الشخص الذي نريد أن نقنعه أنه واحد منكم، مجموعة الممثلين هم فريق الذي يعمل في المستشفى، وأخيرًا المخرج وهو أنا الطبيب المُعالج، بخدعة بسيطة نقول له إنه فقدَ الذاكرة، وأنه شخص منكم وله العديد من الجرائم ويجب أن يُعالَج قبل أن تمكسه الشرطة، بالطبع سينكر هذا ويتشبث بحياته السابقة، وبتحقيق الموتى الذي سيكون في قبو المشفى، وبالإضافة فكرة السيكودراما في الأحلام، التي سيكون فيها المريض مشاهِدًا لجرائمه – الوهمية – حتى يُنحت بذهنه أنه ذلك الشخص التي تطارده المخابرات لجرائمه الفذة، وبعد اقتناعه سيُجلَب إلى مكان خارج المشفى كأنه المكان الذي سيحميه من براثن الشرطة، ثم الإبلاغ عنه، وسيكون أمامه خياران، إما الاعتراف بجرائمه أو الإبلاغ عنكم لحفظ نفسه، وفي هذه الحالة هو لا يعرف عنكم إلا المكان الذي خبأتموه فيه فقط، وسيحفظ رجلكم من مخالب إبليس نفسه، لكن بشرط أن تُمحى شخصية الرجل الذي تقمص شخصية رجلكم للأبد، هذا ما عندي .

فكر عامر قليلًا وقال بعد مدة ليست بالقليلة:

- موافق، ستجرى تجارب مبدئية على تلك الفكرة، وكما اتفقت مع الدكتور أحمد، لكما في كل شخص ١٠٠ ألف دولار.

قام شوقي من مكانه وتبعه في نصب طوله الدكتور أحمد وأغلق أزرار بذلته وقال وهو يمشي خارج المخزن :

- عليكم جلب الضحية وعليَّ التجربة، وأرجو إن احتجتنا أن تأتي لنا في المستشفى، حتى نوفر هذا الوقت لمصلحتكم أولًا، أليس كذلك يا أحمد ؟!

أومأ الدكتور أحمد برأسه ورحلا .

(٢٣)

أُنشئت المستشفى الثالثة وجُهِّزت بكل شيء، وبدأت فيها كل تجارب التي نجحت نجاحًا باهرًا، حتى زادت نفوذ شوقي حتى امتدت لخارج مصر، وذاع صيته بين حشرات حشائش الشر، وفي النهاية التجارب تصُبّ في مصلحة عصابة عامر إبراهيم، وتنهمر الأموال في حسابات شوقي والدكتور أحمد، وتطمس الحقائق وتستر المجرمين، بالطبع قطار تحقيق الموتى لم يتوقف عند هذا الحد، بل انطلق واستقر حديثًا عند محطة أبو عابد، في أفغانستان حيث سيذهب شوقي بعدما اتفقا – بواسطة وسيط في مصر بينه وبين أبو عابد -، كان عليه أولًا أن يذهب إلى تركيا وتحديدًا أنقرة، ثم يستقل الخطوط الجوية الأفغانية (آريان) ليهبط في مطار كابل الدولي، الذي يبعد حوالي ١٠ أميال عن

العاصمة كابل، لو كنت أحد الموجودين في المطار الآن فيمكنك أن تلحظ أن شوقي جاء بمفرده دون الدكتور أحمد – مدير أعماله – بعدما قرر عدم الاستعانة به في الأعمال التي يمكن أن يقوم بها بمفرده؛ حيث أنه يبتلع ثلث أرباح شوقي من محطاته السابقة مع الداخلية وعامر إبراهيم، وما ساعده في ذلك أيضًا هو نفوذه المستمر في التضخم، والذي أضفى عليه نوعًا من الاحترام من الرجال الذين أرسلهم أبو عابد ليجلبوه من المطار إلى المكان المطلوب، تعدى المشوار الـ ١٠ ساعات تغيرت فيها السيارات التي كان يكمل بها طريقه كثيرًا، ولكن شوقي لم يكن متضايقًا لأنه توقع هذا الشيء؛ فمن الطبيعي أن الوصول إلى بؤرة إرهابية في أفغانستان ليس بالأمر السهل والهين.

وصل شوقي إلى مكان صحراوي لكن تملأه البيوت ويتوسطه بيت مبني على هيئة كهف، دلف داخله وخلفه ثلاثة رجال بلحى كثة وجلباب قصير مثل كل المارة أمام البيوت الذين قرأ هيئتهم بعينيه، ظهر له – بعدما قطع مسافة قصيرة في الكهف – ثلاثة ممرات، دلف في الممر الأيسر ليجد غرفتين فرعيتين ودلف في الغرفة اليسرى أيضًا، تركه الرجال داخل الغرفة ليستقبله أبو عابد الذي يجلس على مكتبه الفخم ذي الهيئة الخشبية، وتتناثر في الغرفة بعض الكراسي الجلدية المريحة، طاولتان إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة بعيدتان عن بعضهما، وبعض الآيات القرآنية معلَّقة على الجدار وخلفه عَلَم القاعدة الأسود الذي يكتبون عليه شعار الإسلام – التوحيد – ويرتكبون أفظع الجرائم تحت شعار بلا عقيدة صحيحة وأخير مكيف ليرد حر الصحراء، أشار أبو عابد لشوقي - بالمسواك الذي يمسكه -

بأن يجلس على الكرسي المقابل لمكتبه، قبل أن يبدأ أحدهم بالحديث، تردد في المكان صوت أنثوي ينادي على أبو عابد، فصاح أبو عابد بغضبٍ:

- اصمتِ يا امرأة، فهناك أجنبي سمع صوتك.

عرف شوقي أن مَن خارج جماعته أو خليته هو غريب وليس منهم، لذلك وُصِف شوقي بالأجنبي رغم أنه مسلم مثله، سأله شوقي ليبدأ حديثهم:

- زوجتك ؟!

- لا ملك يمين.

ملك اليمين في الغرفة اليمين، ابتسم شوقي لوهلة بعد ما ردد هذه الجملة في عقله، عاد وجهه الجاد مرة أخرى وسأل شوقي ثانية:

- كيف تريدينني أن أساعدك ؟!

- بتحقيق الموتى.

أخفض شوقي رأسه لعدم وصول مايقصده لعقل أبو عابد فقال:

- أقصد ماذا تريد أن أفعل بتحقيق الموتى لتستفيد منه؟!

- أنا سمعت أنك تستطيع أن تقنع أي شخص بأي شيء، لذلك أريدك أن تقنع بعض الناس بضرورة الانضمام إلينا تحت راية الإسلام والحق و...

قاطعه شوقي سريعًا قبل أن يعطيه درس الأهمية التاريخية للانضمام لهم:

- لا يهمني ذلك، فأنا لن أذهب إلى كل شخص وأقول له هذا الكلام، وإلا لِمَ احتجتم إليَّ إن كان الأمر يقتصر على الكلام، قل لي مالذي يجعل المرء يقوم بعمل انتحاري، دون رفع راية الدين والتضحية من أجله، أريد سببًا دنيويًّا أكثر من كونه دينيًّا لأستطيع مساعدتك.

حكَّ ذقنه مدة ليست بالقليلة حتى قال :

- الظلم والقهر، يولدان الانتقام، ولأجل الانتقام يجب أن يكون قلبك مات غير باقٍ على شخص أو على نفسك من الأساس، باقي على انتقامك فقط.

بدأت الأفكار تتقافز في عقل شوقي، أكثر ما يثير إحساس الظلم والقهر في بلادنا هما المجتمع والشرطة، ولكن لكي تنفّذ انتقامك يجب أن تغلِّف هذا الانتقام إما بغلاف ديني أو غلاف وطني، هكذا تبدأ دائرة الدم والتي يستغلها أبو عابد وأمثاله، عندما يخرج شخص من سجن أو أي مركز اعتقال تابع للشرطة مُعذّبًا يفقد بعض إنسانيته ويحل محلها طاقة غضب ورغبة عاتية في الانتقام ويصبح صيدًا سهلًا للجماعات الإرهابية وبلمسة الجهاد واضطهاد الدين، يصبح لديك إرهابي برتبة مظلوم، وقتها لن تفرق عنده يقتل أو يفجر، ظابط عذبه ولا ظابط بريء ولا المجتمع الذي صمت على تعذيبه وبرره؛ فكلهم مذنبون لأنهم شياطين خُرس، عندها يسلخ ماتبقى من إنسانية لديه في روحه ويتركها معبأة بالكره والغضب، سطع نجم في عقل شوقي

المكتظ بالأفكار الشيطانية، معنى أن جاءته فكرة تصلح للعمل معه، يعني شرًا جديدًا منطلقًا بقطار تحقيق الموتى الذي يؤكد لنا أن الشر هو طريق إبليس الذي يقتل به فطرة الإنسان وهو الأكثر ربحًا والأوسع انتشارًا والأجمل متعة، والذي لن يتوقف إلا بمأساة لشوقي .

(٢٤)

في منزل عائلة شوقي ..

حيث تقف الأم في المطبخ تحضّر الطعام لابنتها "حنين" التي انقلب حالها الوديع إلى اكتئاب غامض، منذ ١٠ أيام وهي على غير عادتها، متكومة دائمًا على فراشها لا تتكلم أو تحرّك ساكنًا إلا حركات خفيفة مبهمة في جلستها الصامتة أو نومتها التي تنتهي على شاطئ الفزع وتردد " لم أقتله لم أقتله "، طلبت الأم طبيبًا ليرى حالها، فلم يرَ أي مرض عضوي بل نفسي، فانتظرت ابنها شوقي عندما يعود من سفره خارج مصر – وهي لا تعرف إلى أين سافر بالتحديد – ليفحص أخته بنفسه،

ولكنه راسلها إلكترونيًا وأخبرها بمدِّ مدة سفره إلى أسبوع آخر لتكتمل مدة سفره إلى شهر ونصف، فحاولت الاتصال بمدير أعماله الدكتور أحمد لكنه لم يجب، فقررت المكوث بالبيت للاعتناء بها خاصة بعدما وجدتها منذ أيام تحاول الانتحار بابتلاع عدد ضخم من الأقراص دفعة واحدة، انتهت الأم من تسوية الطعام وهمت لغرفة ابنتها لإطعامها، دفعت الأم باب غرفتها فأذاع ضوء الصالة بعض الرؤية في الغرفة.

وقع الطعام من الأم فتناثرت شظايا الأطباق والكوب الزجاجي على الأرض، جحظت عيناها باتجاه جثة ابنتها المعلقة بشكل رأسي في السقف، رقبتها يحاصرها شيء قطني سميك على شكل دائري، رأسها مائلة نحو اليسار، وشعرها يتدلى على وجهها. لامست الأم قدم ابنتها غير مصدقة ما تراه، البرودة انتقلت من جسد ابنتها الخالي من الحياة لجسدها، ضربات قلبها تضرب بقوة تزحف الضربات بأعماقها لإخراج روحها لتلحق بابنتها، تراجعت للوراء فدهست القطع الحادة المتناثرة في الأرض كادت أن تندلع منها صرخة مدوية، توقَّف قلبها عن النبض فوقعت الأرض مُلعنًا أن هذا الجسد مُستعمَرٌ من الموت للأبد .

(٢٥)

شوقي لا يزال في أفغانستان يُحضِّر حقائبه للسفر إلى أنقرة ثم إلى القاهرة، لكن ماذا فعل في الأسابيع الماضية، هذا ما سأسرده بإيجاز لنلحق بشوقي في القاهرة ونرى ماذا سيفعل بعد موت عائلته وما حدث قبلها.

طلب شوقي من أبو عابد توفير مكان، فكان المكان موجودًا واستغرق تجهيزه أكثر من أسبوع، لكن هذه المرة الاستخدام يختلف والهدف أيضًا، في السابق كان يتم إلصاق جرائم بشخص ليس له صلة بها، أما الآن سيلصق جرائم في الأجهزة الأمنية والمجتمع، دعوني أشرح لكم

بمثالٍ عِملي، شوقي وبجانبه أبو عابد يجلسان في ممر وأمامهما نافذة مستطيلة الشكل تستطيع أن ترى من خلالها غرفة تشبه غرف التحقيق، ولكنها أوسع قليلًا مما شُيد من قبل، لا يوجد طبيب نفسي، لا يوجد طاقم مستشفة مزيَّف لا توجد فكرة المستشفى أصلًا، فالفكرة الأساسية التي ارتكز عليها شوقي هي أن يتم اختطاف الشخص المطلوب – الضحية – ووضعه في هذه الغرفة، ويتم توجيه اتهامات إليه تتعلق بعمليات إرهابية من قِبَل أشخاص يلبسون زيًّا عسكريًا، وبالطبع سينكر هذا لأنه بريء، ثم تبدأ عملية تعذيب هذا الرجل، ولو استطعت أن تُعيد إلى ذهنك المقاطع المصوَّرة التي كانت في الـ" cd" التي جاءت لشوقي بالطرد، ستتذكر أنها كانت تحوي مقاطع تعذيب بالكهرباء وبالجير الحي، فهذه هي نفس عمليات التعذيب التي يديرها شوقي مع أبو عابد..

المهم وبعد أيام من تعذيب هذا الشخص يتم إلقاؤه في الصحراء ثم يجده أتباع هذه الخلية الإرهابية – على أنها صدفة – ويعتنون به وما إلى ذلك، وهو الذي سيطلب الانضمام إليهم لتحقيق انتقامه الكامن داخله، ولا أفضل من غلاف الدين لتنفيذ مايريد وهم أساتذة في ذلك الأمر، ولو عقلك تمكن من فكرة بحث تحقيق الموتى من أولها لآخرها، لاستنتجت أن العمل مع أبوعابد ليس له علاقة بتحقيق الموتى؛ فالأمر ليس به خداع أو أحلام مصطنعة، فكل شيء حقيقي، ولذلك فضَّل شوقي أن يستغل سذاجة أبو عابد وأن يجني أموالًا طائلة منهم، ككل شيء يباع الآن يقع تحت شعار الدين أو الوطنية، وكل سلعة تفتقر لما أعلنت عنه من مميزات، ولا تخدم الدين ولا تقدم للوطن شيئًا، بقيت

شعارات زائفة من أجل المال، في النهاية تضاخمت ثروة شوقي وقاربت أن تتخطى حاجز العشرة ملايين.

****

دعونا الآن نذهب إلى بيت شوقي في القاهرة، حيث وقف حارس عمارته يمنعه من الدخول بدون توجيه أي سبب له بذلك، حتى قال له :

- البيت أصبح مسرح جريمة ممنوع دخولك، ووالدة وشقيقة حضرتك توفتا منذ ثلاثة أيام.

هول الصدمة ألجم لسان شوقي، حتى نثر الحارس كلامه مرة أخرى:

- سكان العمارة كانوا ينتظرون حضرتك أن تأتي لدفنهما، ولكن لم يستطِعوا الوصول إليك أو الاستمرار في انتظارك، فقرروا اليوم الذهاب لدفنهما، في مقابر عائلة نجيب، مقابركم، اِلحق بهما الآن ياولدي .

(٢٦)

أزمة قلبية حادة.. الانتحار شنقًا..

هذه أسباب وفاة والدة وشقيقة شوقي، قد مرَّ أربعون يومًا على وفاتهم وهذه نفس الفترة التي أعطاها عامر إبراهيم لشوقي ليعود للعمل بتحقيق الموتى، رفض شوقي وأحس أن موت عائلته كان عقابًا له من شر تحقيق الموت الذي ابتكره، وأنه لو كان استخدمه في الخير كان سيصبح حاله أفضل بكثير، ولكن أقنعه الدكتور أحمد بالقيام بتجربة بعد الأربعين يوم حتى لا يسخط عليه أحد، لذلك هو ينتظر في مكتبه إفاقة الضحية الجديدة في عداد تحقيق الموتى، دلف إلى مكتبه رئيس طاقم المستشفى المزيف، واساه بوافاة والدته واعتذر له أنه لم

يحضر العزاء؛ لأنه كان مُسافر لمدة شهر بعيد عن العمل هنا، وقال له شاكيًا:

- يا دكتور شوقي حضرتك عينتني هنا من أجل أن أدير طاقم المستشفى بأكمله، وكل عملي معك نجح بالشدة والحزم، أما بعد أن قام الدكتور أحمد سالم بتجربتين بدوني وولَّى مُساعِدي كرئيس وكان يدير الطاقم بالتسيب والخلاعة بلا أي نظام، وفشلت التجربتان التي شرع بهما، وبدأ الطاقم يتمرد عليَّ لأني أرجعتهم للنظام من جديد، أيرضيك هذا ؟!

قال شوقي في حيرة وشك:

- لحظة واحدة، الدكتور أحمد أجرى تجربتين!! أنا الوحيد الذي لي السلطة أن أمنع أو أشرع في التجارب، كيف له أن يفعل ذلك؟!

- صدقني هذا ماحدث.

ثم أخرج ورقتين من حقيبته :

- هاتان ورقتا التجربتين، أجريتا في نفس التوقيت الذي سافرت فيه، الأولى لشخص يدعى نبيل عُمران وانتهت بالفشل دون أي نتائج، والثانية كانت لامرأة غير مذكور اسمها هنا ولكن صورتها مرفقة بالتقرير.. هاهي...

جحظت عينا شوقي عندما رأى الصورة، صمت عارم اجتاح عالمه لم يسمع إلا :

- ماتت مُنتحرة شنقًا.

توقفت جميع مُدخلات شوقي الحسية عن استقبال أي شيء، فنضج بسرعة إناء يضم أحداث عائلته قبل موتهم، الدكتور أحمد أجرى تجربة على أخته انتقامًا منه لأنه ذهب لأبو عابد دون علمه، وانتهيت بانتحار أخته وموت والدته بأزمة قلبية حادة نتيجة مشهد ابنتها البشع، سمع صوت خافت انسل بين حواسه المُغلقة يقول:

- الشخص قد أفاق يا دكتور شوقي.

فقام شوقي معه كالمنوَّم مغناطيسيًّا، جلس بجانب الضحية الجديدة متجهم الوجه، لم تلتفت حواس شوقي إلى الضحية إلا عندما ذكر جُملة بها اسم " الدكتور أحمد سالم "، أعاد صياغة الجملة في رأسه من جديد حتى تعاظمت جموع الدهشة على وجهه وقال:

- كيف عرفت هذا ؟!

- إني عرفت الكثير لذلك يجب أن يتخلصوا منِّي، ولهذا أنا عندك.

- أتعرف ما أنا سأفعله معك؟!

قالها شوقي بلا أي مبالاة بأن هذا يفسد التجربة تمامًا.

- نعم .

- كيف ؟!

- كُلفت بقتل شخص ما، فذهبت لأُتم ذلك فقد تعودت على سلخ الأرواح من الأجساد منذ سنين، ولكنه عاقبني أبشع عقاب بعدما هرب؛ فترك لي أوراقًا معلقة على مكتبه لأقرأها، ليتني لم أقرأها، كتب

فيها سبب الرغبة في قتله، كتبَ ما اكتشفه عن شبكات عالمية متعددة في كُل بقاع الأرض بأفرادها وأهدافها وسنة نشأتها، وذلك ما جلبني هنا، ولكنهم لا يعلمون أني علمت ما يتخطى ذلك بكثير، ذلك السر الذي لو علمه أي شخص ستحجز روحه أول رحلة خارج جسده .

سمع شوقي السر – الذي لم يذكره في مذكرته – ، وعلم بالفعل أن لو هذا السر حقيقي فهو بمجرد سماعه هذا السر سيموت بالفعل، ترك كل شيء أمامه بعدما لاحت برأسه قرار، أن يجمع كل من " اللواء رفعت السيد – عامر إبراهيم – أبو عابد " - حاول أن يأتي بالدكتور أحمد لكنه لم يستطع الوصول إليه فقد اختفى تمامًا -، ترى كل منهم في جهة منفصلة لكن في أيام معدودة كان هؤلاء الثلاثة موجدين في مقر عامر إبراهيم في مصر، وأمامهم شوقي الذي أخبرهم بضرورة القدوم لهذا الاجتماع هُنا، فبدأ اللواء رفعت بصوته الغليظ الحديث الذي سيكون الأخير لهم:

- من هؤلاء يا شوقي، وماذا تريد ؟!

ضحك شوقي عاليًا، حتى استفزهم جميعهم صوت ضحكاته:

- إنه ينكركم، لم أكن أتوقع أنك قليل الأصل يا سعادة اللواء، ألا تذكر أيضًا عضو الكنيست أو فريق المارينز الذي معكم بنفس الشبكة أو الخلية التي أنتم بها جميعًا.

صاح أبو عابد ببلاهة :

- كيف عرفت ذلك؟

ابتسم شوقي بثقة :

- كنت أعرف أنك أول شخص ستُؤكد لي هذه المعلومة.

- ماذا تريد يا شوقي ؟!

قالها عامر إبراهيم مصوّبًا نظرة تطق شرارًا تجاهه، فقال شوقي :

- أنا لست بصدد تهديدكم، أنا جئت لأعلمكم بما يخفى عنكم.

- لسنا بحاجة إلى معلوماتك، ولا شيء يخفى عنا في هذا العالم، نحن من نحدد مصير العالم.

- لا

قالها شوقي بثقة أثارت أستفزازهم بشدة :

- اسمعوا واعوا.

قال لهم شوقي السر الذي علمه، وبعد ساعات من اجتماعهم قُتلوا جميعًا، والضحية الأخيرة التي كانت في المستشفى اختفت، بقي لسان حال شوقي يقول " الدور عليَّ "

الفصل الثالث: الورقة الدموية

(ورقة بيضاء، ليست بعذراء)

(٢٧)

الورقة الأخيرة مقطوعة من الكتاب

قالها يوسف وهو ينظر إلى مكان تمزُّق جذور الورقة المفقودة من الكتاب.

قام شوقي من مجلسه، أمسك اللوحة بيده، نظر للوحة مليًّا

وجد فراغًا بين ثنيات اللوحة، ظل يغذي هذا الفراغ ويباعد مسافاته بيده إلى أن تباعد جزئا اللوحة، سقط منها ورقة

كانت من نفس خامة ورق الكتاب، ولكن كلمات الورقة كانت مكتوبة بخط مزخرف ومختلف عن باقي كلمات الكتاب

وكانت جملة مكتوبة في الوسط الأعلى كعنوان رئيسي:

(ما فوق الدول)

شعر برعشة سريعة تسري في جسده لا يعرف مناسبتها إلا أنها سرت بعد قراءة تلك الجملة التي كتب تحتها في منتصف الصفحة ثلاثة أسطر بنفس الخط المزخرف. قرأ الأسطر بصوتٍ واضحٍ لكي يسمع يوسف:

" لن أطيل كثيرًا، فالسر خطير وخاصة أنه يقترن بحقيقة تحتها ملايين الحقائق المهمة..

بين بيتيْ حبيبيك ستجد الحقيقة التي يبحثون عنها لطمسها وتبحث أنت عنها لإعادة هويتك.. الخطة عليَّ والتفيذ عليك، ولك حرية الاختيار".

فهمَّ يوسف بسؤال شوقي :

- أهذه مذكراتك أم لا ؟! وإن كانت مذكراتك لماذا تحدِّث فيها قارئيها بلغة المخاطبة والأمر؟! لمن توجِّه رسائلك؟!

لم يكن لدى شوقي رد؛ لأن هذه الأسئلة تفتك برأسه بشدة كإعصار مدمر يقتلع جذور أفكاره بقوة لذلك ظلَّ صامتًا.. ولكن كان هناك سؤال أكثر تدميرًا لتفكيره عن غيره.. ففاجأه يوسف بطرحه عليه :

- إن كنت أنت كاتب هذا الكلام وتوجِّه الرسالة لنفسك من هُما حبيباك وأين بيتاهما؟!

ظل شوقي دقائق يفكر حتى صاح في يوسف ورجاله بلهجة آمرة:

- هيَّا جهّزوا السيارات فطريقنا طويل.

فوجّه يوسف سؤاله لي قائلًا :

- إلى أين ؟!

- المقابر..

(٢٨)

نرجع إلى المكان الغريب الذي يقطن تحت سطح الأرض بمئات الأمتار، وتحديدا في مكتب المسئول الذي أعطى أمرًا بتغيير المهمة إلى الخطة "ب"، وقد وقف أمام مكتبه شخصٌ، وقال للمسؤل في هدوء وثقة :

- بالفعل لقد نجحت الخطة البديلة وهم الآن يتجهون إلى حيث نريد.

- جيد.. ما إن يحل اللغز الذي فشلنا فيه يجب أن يخبرنا رجلنا هناك، وكل من يشهد على حلِّ اللغز يتم التخلص منه نهائيًّا بدون أي تردد حتى رجالنا.

- الأوامر ستنفذ.. ولكن هناك شيئًا كارثيًّا حدث، وتم التكتم عليه لكي لا تصير فوضى في المكان.

- ما هو ؟!

- ورقة التجديد اختفت من المكان المخصص لها، ولا نعرف هذا إلا من مدة قصيرة عندما اتطلعنا على الكاميرات رأينا الورقة مكانها، ولكن في الحقيقة أنها سُرِقَت، وهذا ما جعلنا نشك في كل من في المكان أنه من عطَّل الكاميرات وأعطى للسارق خطة دخول وسرقة الورقة.

أخذ الرجل يرمق الشخص الواقف أمام مكتبه وقد عرفت ملامح التوتر سبيلًا إلى وجهه، ثم قال له في هدوء :

- دعني الآن ونفِّذ ما قلت الآن.. وابقَ على اتصال دائم مع رجلينا؛ لأن الأوامر قد تتغير في أي وقت لو صح ما بداخل رأسي، واجعل عليه مراقبة خاصة وأنت اعرف ما معنى مراقبة خاصة.

لم يتردد الرجل بمغادرة المكتب ولكن المسئول تخبطت الأفكار في رأسه كثيرًا إلى أن ردد بصوت خفيض:

"إن كان ما أفكر فيه صحيحًا فلن يكفيني موتك.. جرعتك من الألم ستكون بانتظار جسدك وروحك".

(٢٩)

نعود لـ شوقي ويوسف حيث استقلا سيارتين وذهبا مع رجال يوسف

إلى المقابر، ظل الصمت حاجزًا بين شوقي ويوسف، فكان شوقي يتساءل في عقله عن شيء غاب عنه وقت قراءة المذكرات: كيف يكون السر خطيرًا وكل من يعلمه يُقتل – وهذا حدث بالفعل مع الثلاثة الذين قال لهم – والشخص الذي قال له السر ظل حيًّا إلى أن قال له؟! وهو أيضًا كيف ظل حيًّا لمدة أيام قبل اجتماعه باللواء وعامر

إبراهيم وأبو عابد؟! بدأحيز الشك في المذكرات يكبر بداخله، ولكن اليوم سيتأكد من صدقه أو شكوكه،قطع يوسف الصمت بينهما بسؤاله مستفسرًا :

- إلى أين سنتجه في المقابر؟!

- إلي مدافن عائلة نجيب، عائلتنا.

لم يعرف يوسف أن شوقي سينزل قبره اليوم، ولكننا نعرف الآن ..

عاد الصمت بينهما مرة أخرى؛ لأن يوسف عرف من هما الحبيبان، ولكن ما الشيء الذي بينهما ويحوي السر المذكور في المذكرات !!

وصلوا المكان المطلوب بتوجيهات شوقي الذي أحاطه الغموض طوال الطريق.

نزلوا جميعًا أمام المقابر وكشافات السيارت تظهر ممر التُرب الذي قُسِّم إلى جانبين، كل جانب به بوابة مدفن كل عائلة على حدة، متراصة بجانب بعضهما..

قال شوقي لرجال يوسف بلهجته الآمرة التي اعتادها طوال الطريق معهم:

- اثنان منكم يأتيان معنا أنا ويوسف واثنان يقفان في أول طريق المقابر حتى إذا أتى أحد يخبرنا والباقي يبقى بجانب السيارات إلى أن نأتي.

نظر رجال يوسف إليه، ينتظرون منه التأكيد على الأمر، فقال لهم:

- أوامر شوقي مثل أوامري.. اسمعوا كلامه بدون تردد أو نقاش، مفهوم؟!

أومأوا برؤوسهم بالإيجاب.. وقسّموا أنفسهم مثلما أمر شوقي، وأخذوا كشافات معهم واتجهوا بالداخل، وقال يوسف لشوقي :

- أتعرف مكان مقابر عائلتك ؟!

- أعطني مئة جنيه

بدون مناقشة أعطاه المئة جنيه التي طلبها.. ثم سأل يوسف مرة أخرى:

- أتظن أن شيئًا سيحدث لذلك قسَّمت الرجال بهذه الطريقة ؟!

- نعم، بوابة المقابر مفتوحة على آخرها وهذا معناه شيئان.. الأول أن هناك حالة وفاة حدثت يجب دفنها الآن.. والثاني أن هذا فخ نُصِب لنا، فلنتوقع الأسوأ ونبقى مستعدين له في أي وقت حتى نعرف من نواجه.

- ماذا تفعلون أيها اللصوص ؟!

كانت هذه من عم صلاح حارس المقابر، انتفض يوسف والرجلان، ولكن شوقي قال لعم صلاح بهدوء وثقة :

- ألا تتذكرني يارجل يا طيب، أنا شوقي من عائلة نجيب.

- نعم، أنا آسف يا شوقي يا ولدي، ولكن وجودكم الآن الساعة الواحدة فجرًا بدون أي خبر أثار شكوكي.. لماذا لم تخبرني بأنك قادم؟!

- أعتذر لك، فقدت أرقام هاتفك مع الأسف، أعرف أن الوقت متأخر لكني أريد أن أقرأ الفاتحة على تربة والدتي وأختي، بعد إذنك بالتأكيد.

قبل أن يرد عم صلاح مدّ يوسف يده إليه بالمئة جنيه قائلًا بابتسامة ودودة :

- فلتعتنِ بالنباتات حول مرقدهما.

- حسنًا، أتعرف المكان وسط هذا الظلام ؟!

- نعم، استرح أنت فقط.

- كما تريد يا ولدي.

بدون أي كلمة أخرى، هرول شوقي بخطوات سريعة داخل الممر مبددًا الظلام أمامه بكشَّافه ويتبعه يوسف والرجلان خلفه، فسأله يوسف :

- منذ متى وأنت تعرف هذا الرجل ؟!

- أنا لا أعرفه ولا أعرف اسمه حتى، هذه أول مرة أراه على الأقل حسب ذاكرتي المشوهة، ولكن بالتأكيد التقيته يوم دفن عائلتي هنا، ولكن الذاكرة لم تسعفني لأتذكره، وهاقد صحَّ توقُّعي ومررننا بالمكان الذي نريده.

وقف شوقي أمام مدخل المدفن ووجَّه كشافه إلى لافتة معلَّقة بأعلى البوابة كُتب عليها "مدافن عائلة نجيب" أخرج شوقي سلسة مفاتيح وبعد تقليب بين المفاتيح اختار مفتاحًا وأدخله في مزلاق البوابة واستجاب له، وفُتِح ..

دخل شوقي بخطوات ثابتة واثقة كأنه يعرف هذا المكان منذ زمن، وقف أمام ثلاثة قبور، القبر الأيمن كُتِبَ على رخامته البيضاء - الشاهد-

قبر المغفور لها بإذن الله

السيدة / حنين محمد نجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربكِ ..... "

إلى آخر الآية وكُتِبَ على القبر الأيسر نفس الكلمات باستثناء مكان اسم المتوفي الذي كُتِبَ عليه: " السيدة / نادية محمد صبري "

وقف شوقي أمامهما يقرأ الفاتحة، لا يعرف متى انتهى من الفاتحة وشرع في البكاء، لكنه كان يردد كلمات راجية ومتذللة لهما لتسامحاه.. حتى ربت يوسف على كتفه مواسيًا له، هنا استفاق شوقي من نوبة البكاء والندم، وتذكر ما جاء ليحضره، وقف أمام القبر الذي يتوسط قبريْ أخته ووالدته، بدأ في فتح باب القبر وساعده يوسف والرجلان في ذلك حتى انفتح الباب وهمَّ

شوقي بالنزول إلى القبر ممسكًا بيده كشَّافه، وجد ورقة كبيرة الحجم تبدو عتيقة لكنها لا تزال تتزين ببياضٍ ناصع، أزال التراب من عليها وقرَّب الكشَّاف منها وبدأ يقرأ بصوتٍ يسمعه يوسف والرجلان اللذان ظلا يحدقان في الورقة :

"إن كنت تمسك بهذه الورقة الآن فأنت بالتأكيد تحت الأرض.. وقد حفرت قبرك بيديك بالمعنى الحرفي للكلمة وتستدعي موتك، واعلم أن بين يديك حقيقة تخفى عن جميع البشر.. واعرف أهمية هذه الورقة وما تخبئه..

ونصيحة منِّي، عش كباقي البشر؛ همهم الأكبر الطعام والشراب والمتعة الجنسية.. من يُحدّثك الآن هو ضمير الكاتب، لا مكان للمثالية مع هؤلاء فهُم لا وصف بشري يمكن وصفهم به.. فكر جيدًا.. وإن أردت الحقيقة، فابحث عنها في تلك الكلمات ..وصدقني لا أخدعك ولا أبث فيك الحيرة؛ فهذا اللغز الذي يؤدي إلى الحقيقة يجب أن يظهر للبشر ويختفي عنهم "

وتحتها كُتِبَت كلمات أشبه بطلاسم غير مفهومة:

"ورقة بيضاء ليست بعذراء تعرف قيمة ما تخبئه تتأرجح على أمواج حائرة؛ لذلك تختبئ عن أعماق كل منا.. ابحث عنها بداخلك تجد ما تسمو النفس إذا نالته: الحقيقة"

نظر شوقي لأعلى ليجد يوسف والرجلين يحدقون به بلا معنى فاتحين أفواههم على آخرها بغير فَهم، حتى قال يوسف مازحًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم، يوسف نشأت الإجابة تونس.

(٣٠)

عادوا من جديد إلى بيت شوقي، ظل أربعة أيام منهمكًا في التفكير في معرفة سر هذه الورقة ولكن بلا جدوى.

بعد تلك المدة أيقن شوقي أنه لن يستطيع فك تلك الشفرة بمفرده، ولن يساعده يوسف بالقدر الذي يحتاجه.. لذلك قرر أن يذهب إلى لندن حيث يوجد صديقه القديم والعزيز " مارك روبيرت " زميله الدراسي منذ أيام الثانوية والذي التحق أيضًا بكلية الطب النفسي مثله عندما سافر لندن مع عائلته بعد الثانوية لسببٍ لا يعرفه.. لا يهم، ما يعرفه أنه سيساعده بالتأكيد؛ فالاتصال بينهما لم ينقطع حتى

وإن طالت المدة لازالا يتشبثان بعلاقتهما مهما بعدت المسافات وطال الزمن.

اتصل شوقي به في لحظة تفكيره به من هاتفه واتفق معه على الذهاب إليه وحكي له القصة بأكملها، واستوعب ذلك بسرعة وقال إنه سيستعد لاستقبالهما،-يقصد كلًّا من شوقي ويوسف- في وقتٍ قصير وينتظرهما في أي وقت يأتيان إليه فيه.. أوكل شوقي إلى يوسف مهمة إتمام إجراءات السفر، وكان أهلًا لهذه المهمة، فأتمَّ كل شيء في ثلاثة أيام على الرغم من الخطر الذي يمكن أن يلحق بهما في كل وقت.. قبل السفر بساعات تذكَّر عنوان الطرد النحاسي اللعين ذلك من أين بُعِث، كان من لندن، قال لنفسه أنه لابد أن يأخذ ورقة الاستلام ويذهب إلى المكان المبعوث منه ويعرف من الذي بعثه إليه حتى تكتمل الصورة لديه.. وفي طريقهما إلى المطار وفي أعماق شوقي أحسَّ أن كل الناس يراقبونهما.. أحس أن كل الناس سينقضون عليه فجأة ويفتكون به.. تلك المؤامرة اللعينة التي يراها في كل المحيطين به حتى من المارة..

من حُسن الحظ أن صديقه طبيب نفسي؛ فإنه بالتأكيد يحتاجه بعد كل ما مر به.

قبل أن ينزلا لصالة المطار سأل شوقي يوسف سؤالًا تأخر كثيرًا في سؤاله :

- لماذا تفعل لأجلي كل ذلك يا يوسف ؟!

ابتسم يوسف بود قائلًا:

- أنا شخص سيىء إلى أقصى حد.. مليئ بالذنوب والمعاصي.. لكن تأتي عليَّ مرحلة استثنائية أصبح فيها أنقى وأفضل بكثير مما أظن في نفسي.. ومن حُسن حظك أني في هذه المرحلة الآن.

تبادلا ابتسامة أخيرة قبل النزول من السيارة، ولكن تلك الابتسامة لم تغيّر من نظرة المؤامرة التي يراها شوقي في وجوه الناس

لم يعد يشعر بالزمن.. فالزمن دهسه بقوة وجاء له بذروة الألم فلم يعد يشعر به..

النزول من البيت..

ركوب السيارة..

المارة يتآمرون عليَّ..

سنموت في أي وقت ..

النزول من السيارة ..

إنهاء الإجراءات في المطار..

سيمنعونني بالتأكيد ..

الانتظار..

الجميع يتآمر عليَّ..

سنموت في أي وقت ..

ركوب الطائرة ..

سيفجرونها ..

الانتظار..

أغمض عينيك ..

اسبح في الذكريات ..

النزول من الطائرة ..

أفكار وأحداث تتخبط في رأس شوقي حتى كادت أن تدمر جداره.. كم من الزمن مضى لا يعلم ولن يعلم فساعته البيلوجية قد توقفت ولم تعد تعمل.. ما إن أنهيا الإجراءات حتى رأيا مارك ينتظرهما في صالة الانتظار..

رؤية صديق – مارك روبيرت - لم تره منذ زمن تحتفظان بالمشاعر لبعضكما.. حالة جميلة ورائعة تكفي لإيقاظ كل ما توقف أو فسد بداخلكما..

بعد عناق حميم وتبادل ذكريات الثانوية وكلام عن بنت الجيران وتلك الجميلة التي كانت محط أنظار المدرسة بأكملها

اتجهوا إلى خارج المطار – شوقي ومارك ويوسف –.

وكان مارك يتحدث اللغة العربية بطلاقة بسبب فترة تواجده في مصر، وهذا سهَّل على يوسف الكلام مع مارك؛ لأنه لا يجيد الإنجليزية.

ركبوا سيارة مارك..

أسئلة عن الحال متبادلة ..

ذكريات الثانوية ..

ما بعد الثانوية ..

تقديم يوسف لمارك ..

تقديم مارك ليوسف ..

سرد ما حدث من جديد ..

ابتسامات متبادلة ..

تذكر شوقي فكرة البحث عن مُرسِل الطرد الذي جاءه فقال لمارك :

- أريد أن أذهب إلى مكتب البريد لأسأل عن ذلك الطرد الذي حكيت لك عنه.

- حسنًا.. نحن قريبون منه، وأتمنى أن يكون مكتب البريد المطلوب فهناك الكثير من مكاتب البريد في لندن.

أومأ شوقي برأسه متفهمًا ذلك.. وقفوا أمام مكتب البريد، دخل شوقي ومارك إلى الاستقبال في المكتب ويوسف لم يدخل معهما لأنه يريد أن يجري مكالمة مهمة على حسب قوله.

همَّ شوقي بسؤال موظف الاستقبال وهو يمدّ إليه بورقة استلام الطرد:

- كنت اريد ان أسأل عن مُرسل هذا الطرد.

أخذ منه الورقة ونظر بها ثم قال :

- هل حضرتك المُرسَل إليه الطرد.

- نعم أنا.. اسمي شوقي محمد نجيب

- لحظة واحدة.

همَّ الموظف بالكتابة على الكيبورد الخاص بالكمبيوتر الذي أمامه.. نظر لشوقي في اندهاش وقال :

- هل قلت لي أن اسمك شوقي محمد نجيب وتريد أن تعرف من مُرسل هذا الطرد؟

- نعم.. ما المشكلة في ذلك ؟!

تردد في الحديث ولكنه قال:

- المشكلة أن من أرسل هذا الطرد هو أنت.

تباينت مظاهر الاندهاش والنفي على وجهه، وظلت نظراته مقسَّمة بين مارك وموظف الاستقبال، حتى قال :

- أوضح أكثر ماذا تقصد ؟!

- ما هو مكتوب أمامي أنك أتيت منذ شهر تقريبًا وتركت الطرد هنا، وطلبت أن يأتي إليك في عنوانك في القاهرة يوم١٥ إبريل، وهذا ما تم بالفعل.

أخذ ورقة الاستلام من الموظف بقوة دون أن ينطق بكلمة وانصرف وتبعه مارك حتى وصلا إلى السيارة وقد أنهى يوسف مكالمته:

- ماذا فعلتما بالداخل ؟!

كان ذلك السؤال من يوسف، فقال شوقي له :

- لقد تعقد الموضوع أكثر وتشابكت الخيوط مع بعضها.

كان سيطرح سؤالًا آخر ولكنه قاطعه قبل أن يسأل، بسؤاله له :

- مع من كنت تتحدث ؟!

- مع شركة متخصصة في حماية الأشخاص، وطلبت منهم رجال أمن ليحمونا في فترة وجودنا هنا.

- ومن أين عرفت هاتفهم ؟!

- من مارك فقد طلبت منه هاتف الشركة قبل أن نسافر بيومٍ.. إننا لا نعرف مع من نحارب وما ينتظرنا، فالحماية هامة الآن إلى أن نكشف الحقيقة يا صديقي.

نظر شوقي إليهما نظرات لا معنى لها.. وركبوا السيارة من جديد متجهين إلى بيت مارك الذي أعده ليقيموا به.. طوال الوقت يفكر فيما قاله الموظف.. كيف أبعث تلك الرسالة إلى نفسي أُدين نفسي أمام مَن!!

أم أريد أن أُدين نفسي أمام نفسي.. ولكن لماذا.. ولماذا في هذا الوقت بالتحديد.. وماذا كنت أفعل في لندن منذ شهر..؟

إن اشتباك الأمور وعدم الفهم صنع وحوشًا من التساؤلات التي تفتك بما تبقى من عقله..

صمت ..

تساؤلات..

تفكير..

لا أفهم..

لا نتيجة ..

نزلنا من السيارة ..

وصلنا لبيت مارك ..

وضبنا حقائبنا في الغرف ..

تناولنا الطعام ..

صمت..

تساؤلات..

تفكير..

لا أفهم ..

لا نتيجة ..

كان أكثر شيء يضايق شوقي في بيت مارك هذا الكلب الأسود الكبير الذي خصص له غرفة وحده.. رغم أن الغرفة مقفلة بباب حديد إلا أنه كان خائفًا منه ويتجنب النظر إليه، ولم يحب أن يسأله عن سبب تربيته لكلب في بيته وحبسه، لكن يفعل ما يشاء هما ضيفان عنده ليس إلا.

- ما هو اللغز الذي تريد أن أساعدك لفك أحجيته؟!

كان السؤال من مارك، كسر به الصمت المريع الذي أحاط بهم.. فقد نسي شوقي لماذا أتى إلى هنا اللعنة على كل شيء غير واضح وغير مفهوم.

أخرج الورقة والتي تشاءم منذ أن وجدها في قبره.. أعطاها إليه، جلسا على مكتبه وخلفهما يوسف ممدد على الفراش ثم همَّ لاستقبال الحراس الذين طلبهم وأعطى لهم أوامره – بعد أن عرّفهم عليهم – بأن يبقوا على باب المنزل ويظلوا متنبهين إذا حدث أي شيء.

وعاد يوسف وشوقي ومارك غارقين في التفكير لفك ذلك اللغز.

بعد ساعات من الحديث والتدقيق في كلمات الورقة.. ردد مارك كلمات اللغز بلهجة مختلفة، بلهجة من استطاع فك الأحجية

" ورقة بيضاء ليست بعذراء تعرف قيمة ما تخبئه تتأرجح تحت أمواج حائرة لذلك تختبئ عن أعماق كل منا.. ابحث عنها بداخلك تجد ما تسمو النفس إذا نالته.. الحقيقة "

أسعدت شوقي لهجته في ترديد تلك الكلمات، فشرع بسأله:

- هل عرفت حل اللغز؟!

فابتسم بثقة وقال:

- نعم.. فالحل كامن في هذه الورقة نفسها.

- كيف؟! أتقصد حبرًا سريًّا؟ جربت ذلك بجهاز لكشف الحبر السري ولم ينجح الأمر.

- بداخلك!! ألا توحي لك هذه الكلمة بشيء؟!

أومأ برأسه بمعنى عدم الفهم، فأردف:

- المقصود بداخلك ليس المعنى المعنوي.. بل حرفيًّا بالمعني المادي.

صمت أحاطهم لدقائق وشوقي يفكر في كلماته الأخيرة، فقال له :

- أتفكر فيما أفكر فيه ؟!

- نعم .

- فلنجرب.. أحضر لنا سكينًا حاميًا.

همَّ مارك إلى المطبخ ليحضر السكين.. ويوسف يراقبهما في عدم فهم فسأل شوقي :

- ماذا تنويان أن تفعلا بالسكينة، وما الذي توصلتما إليه ؟!

- ستعرف الآن.

جاء مارك وهو حامل السكينة المطلوبة وأعطاها له وعلى وجهه سعادة المنتصر، فسأله:

- بدمي ؟!

- نعم، فالرسالة موجهة إليك ولن يترجمها إلا دمّك .

قلب الورقة على الصفحة البيضاء ..

شرع بجرح يده عدة جروح بكل قوة أمدت بها يده -الأخرى- السكين الجرح الأول..

فالثاني..

فالثالث ..

فالرابع ..

ظل يعتصر دماءه على الورقة وهو يطلق أنينًا متحشرجًا من الألم الشنيع، ويوسف مندهش وصاح في شوقي مرددًا: "ماذا تفعل يا مجنون "

ومارك ينظر إلى الورقة ينتظر النتيجة.. بعد ما اعتصر دماء كثيرة حتى ابتلت الورقة بالكامل بدمائه.. بدأ يظهر الكلام تدريجيًّا على الورقة، السعادة المؤلمة ألهمت وجه شوقي ملامح جديدة..

- أنتما مجنونان لكن عبقريان كيف عرفتما حل اللغز ؟!

كان هذا السؤال من يوسف، كان شوقي حالته متردية من كثرة الألم،

ولكن جاوب مارك على سؤال يوسف وهو يمسح دماء جراح شوقي :

" الامر بسيط.. (ورقة بيضاء ليست بعذراء) وهي ظهر الورقة نفسها التي نمسكها فهي بيضاء ناصعة، ولكن مكتوب عليها بحبر سري من نوع خاص؛ لذلك عبر عنها بتعبير (ليست بعذراء) أي أنها مكتوب عليها بالفعل

ومسَّتها الحروف

(تعرف قيمة ما تخبئه) كتب هذه الجملة لتأكيد أن ما تحمله سرًا خطيرًا يجب البحث عنه مما يثير قارئها أأثر لكشف الحقيقة التي تخبئها.

(تتأرجح تحت أمواج حائرة لذلك تختبئ عن أعماق كل منا)

وهذا ما فعلتماه، تفكيركما أصبح أمواجًا حائرة لذلك لم تصلا إلى أي شيء.

(ابحث عنها بداخلك) هذا هو فك الأحجية فمن المتوقع أن يظن كل من يقرأها أن معناها معنوي مثل الشجاعة الصدق الأمانة.. ولكن هو كان يقصدها حرفيًا بالمعني المادي وهي الدماء التي تسير داخلنا ولذلك أعطيت لشوقي السكين ليروي الورقة بدمائه لتظهر الكلمات التي تظهر تدريجيًا أمامنا الآن.

(تجد ما تسمو النفس إذا نالته.. الحقيقة) هو ما سنعرفه الآن "

أنهى مارك كلامه وشوقي بدأ يستفيق ويتحرر من غزو الآلام.. ويوسف يحاول أن يتفهم ما قاله مارك، ولكن الشيء المشترك بينهم جميعًا هو السعادة التي نالت من وجهوهم حتى سيطرت على ملامحها..

- أحسنتم صنعًا وتفكيرًا.. ولكن شوقي جراحه عميقة وكثيرة سأحضر له دواء من الصيدلية.

همَّ يوسف مهرولًا للخارج ليحضر الدواء، ولكن أوقفته كلمات مارك له:

- الصيدلية بعيدة عن هنا كثيرًا، خذ مفاتيح سيارتي واذهب بها أفضل وأسرع.

اومأ يوسف برأسه موافقًا وشكره وأخذ المفاتيح وهاتفه وغادر، فقال شوقي لمارك بلهجة معاتبة :

- كان في وسعنا أن نبعث أي رجل من رجال الأمن بالخارج بدلًا من يوسف.

- اقرأ هذه الكلمات وستعرف كل شيء.

لم يرِحه رد مارك الأخير، ولكن الكلمات ظهرت ونضجت جيدًا لقراءتها:

فقرأها شوقي بصوت عالٍ نسبيًّا حتى يستمع مارك:

كانت الورقة حمراء من لون الدم وجزء كبير منها مكتوب بخط أسود، والجزء الباقي من الورقة مكتوب بخط أبيض :

" الحمدلله أنك حللت لغز الورقة يا شوقي.. فهذا يعني أن خطتي نجحت بالكامل، وأن رسمي لمستوى الحقيقة عندك سار في النهج المطلوب والذي سيكمل إلى الحقيقة التي أريدك أن تعرفها وفعلت كل ذلك لأجلها، وأعرف أن أنا وأنت سنموت، من أنا ؟! أرى ذلك السؤال داخل رأسك ثائرًا يطلب الإجابة.. سأجيبك عنه يا صديقي، أنا الطبيب شوقي محمد نجيب.. نعم أنا أنت.. ولكن هناك فرق بيننا فأنت الآن أفضل وأنقى منّي بكثير.. أنت تلك الفطرة الصافية التي قُتِلَت داخلي وبملء إرادتي الحرة، أنا من فجَّرت في أعماقي بركانًا من الشر المقترن بالعلم.. إنه العلم الذي جعلته يؤذي البشر ويخفي

الحقائق عنهم.. وستار المجرمين.. أكره نفسي وأتمنى الموت بل أستحقه عن جدارة.. ولكن ليس قبل أن أنتقم من نفسي قبل غيري.. الحقيقة التي جعلتك تجهلها ولتكتشف حقيقة أعظم وأعمق وتعطي لهم درسًا لن ينسوه أبدًا ياصديقي النقي افتح عقلك لاستقبال الحقيقة.. بعد أن ماتت أختي منتحرة بسبب تجربة لتحقيق الموتى أُجريَت عليها وتبعتها والدتي بأزمة قلبية لمنظر ابنتها الشنيع.. كان الذنب يغزو كياني وينهش روحي ولحسن الحظ أني يوم عرفت هذا كان يوم معرفتي بالسر الأعظم.. فجاء إليَّ آخر الضحايا لتحقيق الموتى، وكما عرفت من المذكِّرة أنه أخبرني بسِرٍّ خطير لم أذكره في المذكرة، وقال لي وتحداني أن أي شخص سأقول له السر سيموت بعد علمه مباشرة والسر هو وجود منظمة سرية تحكم العالم، تساءلت في حيرة مالذي يمكن أن يكون فوق الدول، ما فوق الدول ؟! ما فوق الدول، تحوَّل السؤال عندي إلى جملة واقعية خبرية، لذلك أسميت السر "ما فوق الدول"، ولذلك أخبرت اللواء رفعت وعامر إبراهيم وأبو عابد الذين تجمعهم خلية واحدة مع شخصيات أخرى مهمة في العالم، ففي الظاهر هم يحددون جزءًا كبيرًا من مصير العالم فلو قتلوا هذا سيثبت أن هناك شيئًا أكبر منهم بكثير وقلت لهم كما علمت من المذكرات وقتلوا بالفعل وكانت دائرة القتل عليَّ، ولكن أهداني الله – رغم ذنوبي– الحل الأمثل.. أني أدعي أمام كل من له صلة بتلك المنظمة- وخاصة الدكتور أحمد الذي جاءني بعدها بساعات– أو أيًا كان مسماها أني عرفت مكانها ونشاطها وأهدافها، وأني احتفظ بمعلوماتي عنهم في أوراق أخفيتها لتأمّني منهم، وفي الحقيقة أنا لا أعرف إلا أنهم موجودون فقط

لا غير ذلك.. أعرف أن الخلاص منّي يجب أن يكون شنيعًا ولكن يجب أن يجعلوني في الدائرة التي صنعتها بنفسي.. نعم تحقيق الموتى.. وعرفت ماذا سيفعلون وبمن سيستعينون، وخلقت الظروف والألغاز التي تجعلهم يتتبعون ويأكلون الطُعم تلو الآخر.. ووصلوا للورقة التي في يديك ولم يستطِعوا أن ينالوا من لغزها.. وفي الوقت الذي كانوا يخططون للتخلص منّي وفك اللغز الغائب عنهم.. ما كانوا يعلمون أنهم يتبعون خطتي أنا وأني أنصب لهم فخًّا وأصنع أول فجوة وخطأ في تاريخهم المليء بالانتصارات.. لذلك جعلت الأمر يمشي طبيعيًّا في نظرهم.. وحتى تنقي فطرتي مما اتسخت به من شر وغرور وآلم بشر أذيتهم.. سيأتون بعد قليل بعد أن يخبرهم يوسف أنك حللت اللغز.. نعم فإن يوسف معهم ألا تعرف.. كل من حولك يتآمر ضدك ويريد أن تُدمَّر وتفتك فتكًا.. عدا اثنين من الأحياء صديقك مارك الذي بجانبك الآن.. وحبيبتك نور المخلصة لذكراك.

إنه قادم الآن.. أريدك أن تعرف عنه الكثير من الأفعال القذرة التي كان يفعلها وعن مهنته الأساسية غير الكتابة.. استمتع بالحقيقة وتفهمها بعقلك جيدًا

وانتظر الحقيقة القادمة .."

الجزء المكتوب بخط أبيض:

"بالتأكيد أنك تلاحظ أن هذا الكلام مكتوب بخط أبيض غير سواه.. تلقى هذا الكلام جيدًا في عقلك؛ لأنه سيمسح بعد وقت قليل تلقائيًا ولن يبقى سوى الكلام الذي بخط أسود.. صديقك مارك يعرف ما

الخطوة القادمة اتبعه وثق به.. ستذهب إلى تلك المنظمة ليتأكدوا من أنك لا تخفي شيئًا آخر عنهم، معرفتك بوجودهم وحدها حقيقة تخفى عن العالم بأسره، ويمكن أن تغيره أيضًا فلا تستهين بها.. اعرف أنهم سيقتلونك بعد أن تعرف كل شيء.. ويمكن أن تنجو ولكن لا تتشبث بهذا الأمل الضعيف.. وإن نجوت – بإذن الله – اذهب إلى قبرك بعيدًا عن أعينهم وخذ معك الصندوق النحاسي ستجد فيه شيئًا يعني موتهم أو حياتهم.. حاول أن تتوصل لطريقة لمعرفة سر الورقة أو تخلَّص منها أو على الأقل أخفِها عنهم وتحت أي ظرف لا تقدِّم نفسك للمحاكمة.. هذه الوصايا التي أوصيك بها يجب أن تنفِّذها، إن الحقيقة منجم ثمين إن أردت أن تفوز به.. فقطّع من جسدك، عمال الألم يسكبون الدماء من أوصالهم.. الحقيقة هي من تجعل روحك ترتقي وتنقي..

فليرحمك الله.. ويغفر لي ذنوبي.. "

بعد ما أنهى شوقي القراءة نظر إلى مارك نظرات راجية بأن يعلمه:

- أنا لا أفهم شيئًا يا مارك، أرجوك قل ماذا حدث ويحدث ومن هُم الذين يريدون قتلي ؟!

- سأقول لك كل شيء يا صديقي.

تنهد مارك وبدء في السرد:

" جئت إلى هنا منذ أكثر من شهر تخبرني بأنك مستهدَف وأن أشخاصًا يريدون قتلك، لم تخبرني بالمزيد سوى أنك تنصب لهم فخًّا، وجئت إليَّ كي أشخِّص حالتك النفسية، وما فهمته مما قلته لي عن ما حدث لك

في القرية، أنك كنت تلاعبهم بذاكرتك بأن تنسى ما يزيد عن مايريدون، ويعتقدون أن خططتهم تسير في طريقهم، ولكن أنت خدعتهم قبل أن تفقد الذاكرة بأن أخبرت كل من مع المنظمة تلك من قريب أو بعيد بأنك تملك معلومات كثيرة عنهم وأنت في الحقيقة لا تعرف سوى أنها موجودة فقط، وصنعت ألغازًا كي يظنوا أنهم بحاجة إليك لفك هذه الألغاز عن طريق استعادة شخصيتك الضائعة ثم يتخلصون منك، أنت عبقري ياشوقي، خدعتهم وحافظت على حياتك إلى الآن "

- كيف لي أن ألاعبهم بذاكرتي، كيف ؟!

سأعيد ماقلته لك، أنت جئت لي منذ أكثر من شهر لأشخِص حالتك النفسية، أنت اعتمدت على خطتهم بأنهم يريدون أن تفقد من ذاكرتك جزءًا كبيرًا من أحداث عمرك الأخيرة كي تبدأ بالبحث عن ألغازك مثلهم وتحلها دون خوف من معلوماتك التي تعرفها عنهم، واعتمدت أيضًا على عاملين في النسيان (الكبت)* و(التشويه)*، في الكبت اعتمدت على كرهك لبحث تحقيق الموتى وماخلفه من ضرر منذ بدايته، أما التشويه كان منهم؛ بضرب أحد رجالهم رأسك من الخلف بقوة، في القرية كما أخبرك الرائد عصام قبل أن يموت.

سيل من الأسئلة انسل من بين طيات عقل شوقي ليطلقها بلسانه:

- وما علاقة يوسف بهم، ومن أين عرفت حل ذلك اللغز، والصندوق النحاسي الذي وجدت فيه مقاطع مصوَّرة تدينني وأنا من بعثتها لنفسي كيف ؟

- أنت من أخبرتني بحل اللغز وأعطيتني ذلك الكلب الأسود وقلت لي أن أرعاه وأحافظ عليه وأنك ستلجأ لي بعد شهر، والمقاطع المصوَّرة تلك كانت لإرغامك على كشف الحقيقة بأنك لا تملك خيارًا سواه، أما يوسف فكانت مهمته مساعدتك وبأن تصل لحل الورقة ومن ثم سيقتلونه ويقتلوننا.

---

*الكبت: هو نسيان مدفوع وراءه دوافع لاشعورية نتيجة رغبة الشخص في عدم تذكُّر موقف مؤلم تعرَّض له من قبل.

*التشويه : هو تلاشي المعلومات من الذاكرة عن طريق التلف أو بمرور الزمن أو الحوادث والإصابات.

- لماذا تتكلم عن قتلنا كأنه أمرٌ هين هكذا ؟!

- لأني أعرف كيف سننجو.

- كيف ؟!

هنا دخل يوسف وهو يحمل بعض الأدوية الطبية وبعض القطن وملامح وجه سعيدة ومنتشية وقال لهما:

- ماذا كانت تحمل الورقة يا عباقرة ؟!

- تحمل خيانتك..

وقعت الأدوية من يد يوسف نظر إليهما بفزع وهرع إلى الخارج بسرعة وأحضر رجال الأمن من الخارج وأمرهم بتوجيه السلاح في وجهيما.

(٣١)

- أتظن أن رجال الأمن الذين أعطيتك هاتفهم سيقتلونني !!

قالها مارك ضاحكًا وهو ينظر ليوسف المكبَّل بسلاسل حديدية في كرسيٍّ والمحاط برجال الأمن، جلس مارك مبتسمًا وبجواره شوقي وأدارا كرسيهما بحيث يكون مسند الكرسي في وجه يوسف، ضحك شوقي ضحكات عالية وهيستيرية غير مفهومة إلى أن توقف عن الضحك فجأة وقال :

- ما أشبه الليلة بالبارحة، موقعك المكبَّل والمتوسط للرجال الذين حولك يذكرني بموقع عصام عندما كنا في القرية، أتذكر الكلام الذي

قلته له وقت تهديده؟! الآن أنت مكانه ماذا نقول لك لكي تتكلم وتحدثنا بما عندك، نهددك بالقتل أم المضاجعة أم التعذيب ؟!

لم تخرج كلمات من فم يوسف، وظل محدقاً فيهما بلا معنى، فقال مارك بابتسامة منتصرة :

- أنا أعرف ياشوقي ما سنهديه إليه، الحقيقة، ما إن يعرف الحقيقة سيكون في تعداد الموتى عندهم إن لم يكن هكذا بالفعل.

نظر يوسف بنظرة خائفة ممزوجة بالحيرة، فأردف مارك :

- منظمة سرية تتحكم في العالم يكشفها لكم يوسف نشأت، عنوان جميل لتكتبه في جريدتك، ولكن أعتقد أن الحياة لن تعرف لك طريقًا بعد أن تعلم، شوقي كشف عن وجود منظمة سرية تتحكم في العالم بأسره، ومجرد معرفة ذلك يمثل خطرًا كبيرًا يهددهم؛ لذلك يجب أن يتخلصوا من الذي يعرف بذلك، وعندما أحب أن يتأكد شوقي من هذه المعلومة البسيطة السطحية عنهم، قال لعامر إبراهيم واللواء رفعت السيد وأبو عابد، في اجتماع أخبرهم فيه بذلك وقتلوا بعدها بساعات، هنا تأكد شوقي من صحة هذه المعلومة، وكان الموت يلاحقه في كل مكان، ولكن ما أخَّر سعيهم في قتله هو خداع شوقي لهم بأنه يعرف الكثير عنهم ويخبئ ما يعرفه في أوراق وهناك الغاز تؤدي إليها، وكل هذا fakeغير حقيقي بالمرة، وأنت طبعًا كان دورك هو أن تساعده ليفك اللغز ويتم التخلص منه، وأنت بالتأكيد أبلغتهم عن طريق الوسيط الذي اتفق معك، أننا حللنا اللغز وهم الآن في طريقهم والموت متحمس للقائنا جميعًا، ونحن نعرف كيف ننجو منهم، فسنسألك

بعض الأسئلة وبعد الإجابة بما تعرف، احتمال بسيط أن نعطف عليك ونجعلك تنجو معنا، ولك حرية الاختيار ؟!

قطع شوقي بسؤاله حفلة صاخبة في رأس يوسف من أفكاره المتخبطة الخائفة :

- ما مهنتك الحقيقة؟!

- أنت تعرف اني اعمل في جريدة.

- أريد الذي لا أعرفه

صمت برهة ثم قال :

- تاجر أعضاء بشرية .

أحاطهم صمت ثقيل، ثم أردف يوسف كأنه يفضي إليهما:

"كان عملي في البداية هو جذب فتيات إلى مكان معين لإفراغ محتويات الجسد – بعد تخديرهن - وفتاة فالأخرى حتى تجاوزن عدد أصابع اليد بمراحل، كنت قد اعتدت ذلك العمل الدنيء كل يوم، كانت إنسانيتي طاغية ومؤنبة على في البداية، ولكن احتياجي الشديد للمال جعلني أهملها، ولكن ما إن حصلت على المال وما عدت بحاجة إلى العمل فقدت ماتبقى عندي من إنسانية، وعملي أعجب به الرجل الكبير للعصابة أو الخلية أو سمها كما تريد، وترقيت درجة درجة إلى أن وصلت إلى أن أكون أنا الرجل الكبير بعد وفاة الرجل القديم الكهل، وكبرت العصابة على يدي ولزم أن أتخفى وراء عمل ما يبعد عنِّي الشبهات، لذلك عملت كاصحفي في باب ماوراء الطبيعة، خاصة

أن هذا الباب يفسّر وجودي في أماكن مقطعة فيها الأعضاء بتفسيرها أنها قرابين لأناس جهلاء لا يفقهون شيئًا، وتعرفت بك بعد أن عملت كصحفي، تقريبًا أنت الوحيد الذي لم أرد منه شيئًا، ولكن اتفق معي شخص على مساعدتك مقابل مال كان يرسله إليَّ ولم أَرَ الرجل هذا أبدًا، وساعدتك من أول هروبك من المستشفى إلى وصولك هنا، و.. "

- وما إن حللنا اللغز إلا وأخبرت الوسيط هذا عن طريق الهاتف وجئت إلينا لأنه قال لك انتظر هناك لنعطيك باقي اتفاقنا من المال، أليس ذلك صحيحًا؟

قالها شوقي وهو ينظر له بنظرات تطق شررًا، أومأ يوسف برأسه، فقال شوقي :

- إن مخيلتي السنمائية رائعة، أستطيع أن أتوقع الأحداث بدون أن أرها، وأستطيع أن أراك أمامي مقتولًا وأركان جسدك احتلها الرصاص.

سحب شوقي سلاحًا من سروال أحد رجال الأمن ووجه فوهة المسدس نحو جسد يوسف :

- لا تقتلني ياشوقي أرجوك

- أنا آسف يا يوسف أنت تجلس في المكان الذي سأطلق فيه الرصاص.

(٣٢)

أسمع بعض الصياح في هذا المكان الغريب الذي يتمركز تحت سطح الأرض والذي نستطيع أن نستنج بالمعلومات التي علمناها وبعض الذكاء أن ذاك المكان هو مكان المنظمة التي تريد قتل شوقي، لنسترق بعض موجات الصوت التي ستتجمع في آذاننا لتشكِّل هذه الكلمات المُقالة في سرعة ممتزجة بالغضب:

- هذه المنظمة تحكم الأرض منذ مئات السنين بدون أي خبرٍ بسيطٍ يتسرب عنها أو منها، وتقولون لي إن ورقة التجديد قد سُرِقَت وطبيب

مجنون يعرف بوجودنا ومكاننا ومعلومات كثيرة أخرى عنا ولا نستطيع أن نتخلص منه، أريد تفسيرًا تفصَّل فيه كل تلك الأخطاء الجسيمة؟!

أتستطيع أن ترى ما أرى، إن لم تكن تستطيع، فسأصف لك المشهد، هناك خمسة أشخاص مجتمعون على طاولة دائرية أخمن أنها مصنوعة من خشب فاخر لا أعرف كنهه، والرجل الذي سمعنا صياحه هو شخص يجلس في مقدمة الدائرة والأربعة الآخرون حولها، لا إنه ليس المسئول الذي تحدثنا عنه، إن المسئول من الأربعة، ولكن هذا لا ينقصه أهمية، فقال شخص بجانب المسئول:

- عرفنا كيف سرقت الورقة سيدي.

- كيف؟!

تردد الرجل حتى قال بدون أن يصوّب نظراته إلى من يجاوبه:

- عبر استجواب قرين الشخص المسئول عن حماية ورقة التجديد.

قال الرجل في غضب عارم يجتاح نظراته التي تطق شررًا :

- استجواب قرين شخص يعمل هنا!! أليس قتل قرين كل شخص يعمل هنا من الأشياء المقدسة في المنظمة، كل هذه الثغرات كافية لتدمير المنظمة وإنهاء حياتنا ونحن الخمسة بالتحديد.

قال أحدهم بلهجة حاول أن يجعلها هادئة :

- نعرف سيدي، ولكن الشخص المسئول عن قتل قرين كل شخص منا يؤكد أنه قتله، وبمساعدة بعض من أفراد الجن عرفنا أن القرين لم

يمت بل أصيب إصابة بالغة وأن قبيلة من الجن أسعفته وعاش فيها كل تلك الفترة إلى أن جاء أحد من الجان غير الموالين لهم، استجوب ذلك القرين عن ثغرة يستطيع أن ينفذ بها ليدخل للمكان المخصص لحماية الورقة واستطاع أن يأخذها ولا نعرف أين هي الآن، ولحسن الحظ أن الورقة بعيدة تمامًا عن مكان المنظمة وإلا لكان علم بمكان تواجدنا الآن.

- بهذه البساطة تتحدث وكأن شيئًا لم يحدث

صمت لبرهة يبتلع بها غيظه وغضبه الثائر وقال:

- اسمعوا هذه التعليمات جيدًا، الرجل المسئول عن قتل القرين يُقتَل الآن بلا نقاش، وفي خلال أيام قليلة تقولون لي إنكم أعدتم الورقة لمكانها المحدد، وتخبروني بإنهاء أمر ذالك الطبيب وكل من معه، وأقل خطأ يقع من أي فرد في المنظمة حتى لو كان أنا يقتل بالفلوجكافين، أي خطأ، مفهوم؟

أومأ الأربعة برأسهم في صمتٍ وغادر الرجل المكان وهو يشتاط غضبًا، نظر الأربعة لبعضهم نظرات حملت مزيجًا من الحيرة والخوف من القادم.

دخل رجل – لو تتذكرون معي، هو نفس الشخص الذي أعطى الورقة للمسؤل الذي هو جالس من ضمن الأربعة – ويحدق بهم في صمتٍ لا يخلو من الفزع إلا أن قتل الصمت بينهم قائلًا:

- هناك أخبار لا تسر عن موضوع الطبيب.

صمت ليزدرد ريقه ليكمل:

- رجلنا هناك معه – وهو يوسف – أكد لنا – عبر الوسيط - أنه حلَّ لغز الورقة وأن الورقة حلها كامن في كلمات مكتوبة بخط سري لا يظهر إلا بعد ارتواء الورقة بدماء شوقي، واستغل جروح شوقي بأن يخبرهم أنه سيذهب ليجلب بعض الأدوية له، وفي هذا الوقت حدَّث الوسيط وقال له كل هذا، ولكن المراقبة الخاصة حدث معها شيء غير متصور. ما إن خرج يوسف ليبلغنا حتى هاجموهم أفراد لم يميزوهم ولا يعرفون من أين أتوا، لكن هم هاجموهم ليشغلوهم عن قراءة شوقي لما تحمله الورقة وما إن انتهت المناوشات بهم حتى هموا مسرعين ليعرفوا ما حدث، وللأسف لم يجدوا شوقي أو مارك كأن الأرض ابتعلهما.

(٣٣)

هناك شيء مشترك بيننا وبينهم – الاربعة أشخاص والرجل الذي يخبرهم – هو أننا نريد أن نعرف أين شوقي ومارك الآن؟! سأروي لكم ما حدث بإيجاز - حتى لا يفقد سؤالك عن مكانهم الآن بريقه - منذ أن تركناهم وشوقي يوجِّه المسدس في وجه يوسف الذي قال :

- لا تقتلني ياشوقي أرجوك

- أنا آسف يا يوسف، أنت تجلس في المكان الذي سأطلق فيه الرصاص.

وضع مارك يده على المسدس وبدأ يخفض زاوية اتجاه المسدس تدريجيًّا وهو يقول لشوقي :

- أعرف أنه يستحق الموت، ولا تخَف سيناله عاجلًا أم آجلا، سنتركه ينتظر الموت فهذا سيعذبه كثيرًا وسيفقد جسده روحه قطعة قطعة في كل لحظة ينتظر فيها الألم إلى أن يجد له سبيلًا لجسده.

انخفض المسدس عن جسد يوسف ولم يعد في مرمى رصاصاته، هنا قال شوقي ظافرًا بكل الضيق الذي بداخله :

- ماذا سنفعل الآن ؟!

أدار مارك وجهه لرجال الأمن وأمرهم بتكميم فم يوسف وأن يخرجوا لخارج البيت ليأمنوهم من الخارج، فقال مارك لشوقي وهو يمسك بـ " ريموت كنترول " يحوي زرين فقط:

- سنتخبئ إلى أن يأتوا ويقضوا عليه.

وبعد جملته الأخيرة ضغط على زِر باللون الأزرق وفتح قطعة من أرضية الغرفة مربعة الشكل تدريجيًّا إلى أن فتحت كاشفة عن سلم درجاته قليلة، نزلا عبر سلالمه إلى ذلك المكان المربَّع وضغط على الزر الأحمر وهو يسمع بوضوح توسلات يوسف المكممة والمكتومة.

****

نعود إلى آخر كلمات الرجل الذي يخبرهم عن اختفاء شوقي ومارك :

- وللأسف لم يجدوا شوقي أو مارك كأن الأرض ابتلعتهما، ووجدوا يوسف مكمم الفم ومربوطًا بسلاسل حديدة في كرسي، ولكن هذه المعلومات جاءت بعد فوات الأوان.

****

ما الذي سيحدث الآن ؟!

سأل شوقي مارك هذا السؤال ليجيب عنه قائلًا :

- أعيد لك المعلومة، كل ما يحدث هو من ترتيباتك وأنا أنفِّذها حتى هذا القبو الصغير أمرتني ببنائه من النحاس، وقلت لي سنختبئ به إلى أن يأتي أفراد مسلحون من المنظمة سيقتلون كل من في المنزل بلا نقاش لذلك سنختبئ إلى أن يجدوا الورقة – التي فككنا لغزها - وقتها سوف يعيدون التفكير في قتلنا إلى أن تأتي مجموعة أخرى تنقلنا إلى مكان المنظمة ليتأكدوا أننا لا نخبئ معلومة أخرى عنهم.

- ولكن يوسف رآنا ونحن نزل لهذا القبو يمكن أن يقول لهم ويقتلوننا قبل أن يجدوا الورقة.

- لا تخف يوسف سوف يقتلونه عندما تقع أعينهم عليه مباشرة، وحتى رجال الأمن بالخارج سيقتلونهم ثم سيبحثون عنا وسيجدون الورقة ليبلغوا بها المنظمة ويرحلوا و...

قطع صوت طلقات نارية مكتومة – سمع صوتها خفيضا جدًّا - تسلسل كلامه،

تخبطت أطراف كرسي يوسف بالأرض ليصدر صوتًا يسمعونه جيدًا ..

صوت اقتحام باب الغرفة ..

صوت طلقات نارية مصحوبة بصراخ أمامه حاجز صلب من البلاستيك المضغوط في كمامة على فم يوسف

خطوات عشوائية في البيت

ثم خطوات ثابتة ثم سكون تام

أعتقد أنهم الآن يقرأون الورقة باهتمامٍ شديدٍ

****

- ولكن المعلومات جاءت بعد فوات الأوان، فالقوة التي أرسلناها لقتل كل من شهد على حل اللغز قتلت يوسف وبحثت عن شوقي ومارك ولم تجدهما، والمراقبة الخاصة تؤكد أنهما تعرضا لذلك الهجوم لكي لا يعرفان أين هما، ويقولون إن هناك فردًا من الجن تحرر من جسد الكلب الأسود الذي كان في غرفة مستقلة في بيت مارك ويرجحون أن يكون تحرر هذا الجني هو علامة على فك اللغز.

****

- لقد مات الكلب

قالها شوقي وهو ينظر للكلب الراكد بلا حراك بعدما خرج هو ومارك من القبو الصغير الذي بأسفل الغرفة – عندما تأكدا من أن المجموعة التي قتلت يوسف قد رحلت – .

****

- وهذا يعني أن شوقي...

قاطعه أحدهم:

- يستخدم السحر

- نعم، والمجموعة التي قتلت يوسف وجدوا الورقة على المكتب وأرسلوا لنا صورة منها بعدما غادروا منزل مارك.

سحب الرجل من الطاولة الدائرية شيئًا مربعًا شفافًا إلكترونيًّا لأنه الآن يعرض كلمات الورقة التي تم تصويرها، قرأوا ما فيها، وظل الصمت يطبق عليهم كثيرًا حتى صاح أحدهم كاسرًا حاجز الصمت:

- لقد خدعنا جميعًا، أوهمنا أنه يعرف عنا الكثير وهو في الحقيقة لا يعرف إلا عن وجودنا فقط، يجب أن يدفع الثمن غاليًا، لا بد أن يقتل بالفلوجكافين.

خرجت كلمات من المسئول بهدوء متماسك إلى حدٍّ كبيرٍ:

- وإن كان يخبئ عنا سرًّا آخر وقتلناه دون أن نعرفه ماذا سيحدث لنا، سُنقتَل نحن بالفلوجكافين بكل تأكيد، يجب أن نتأنّى قليلًا في قرارتنا، سنحضره هنا مخدَّرًا إلى أن يفيق ونعلم منه كل شيء يخبئه عنا، وهنا..

- كيف ستخيفه أم تعذبه ؟! إنه فاقد الذاكرة ألا تعلم ذلك !!

- عندي طريقة ستجعله يقول كل شيء حتى وإن كانت ذاكرته غير موجودة برأسه.

سكت وهو يوزع نظراته بثقة بين الجالسين، حتى قال بلهجة آمرة :

- أأمروا فريق المراقبة الخاصة أن يراقبوا البيت باستمرار إلى أن تتمكن القوة التي سنبعثها لتجلبه هو ومارك إلى هنا سالمين مخدرين.

الباب الرابع : ما فوق الدول

(أوافق على أن يغزو الألم جسدي.. ولكن أن يأتي لي بالحقيقة كاملة لا نصفها)

(٣٤)

- شوقي، هل بدأت ذاكرتك في توريد أحداث لا نعلمها عن ما خططت له وما علمته قبل أن تفقدها؟!

قالها مارك وهو يحدق بشوقي باهتمام، ولكن شوقي كانت نظراته مصوَّبة على الكرسي الذي كان مربوط يوسف وبالتحديد على الدماء التي رفضت مغادرة مكانها حتى بعد مغادرة جسد يوسف له –الذي اختفى هو وجثث رجال الأمن من البيت – فكرر مارك السؤال فانتبه شوقي ليجيب:

- لا، إنها تؤكد لي بشكل أو بآخر المعلومات التي التقطتها في الأحداث التي مررت بها بعد فقدي للذاكرة، لا شيء جديد سوى الذي نعلمه.

****

- المراقبة الخاصة تؤكد لنا أنهما في البيت الآن، وأنهما كانا يختبئون في قبو أسفل الغرفة، سنذهب إليهما لنخدرهما وننقلهما إلى مكان المنظمة كما أومرنا وبلا عنف كما قيل.

- جيد، أخبرهم أننا في طريقنا إليهم.

****

أومأ مارك برأسه متفهمًا، مر الصمت عليهما ليلقي سلامه ويجلس معهما ليجلب لهما المزيد من الخوف والارتباك، حتى قال مارك بشكلٍ سريع كأن كلماته أخذ الصمت وصبره معه ليترك ملامح الخوف على وجهه:

- أنا خائف ياشوقي، خائف لدرجة كبيرة، هؤلاء لا يمزحون وما نعرفه عنهم كافٍ لقتلنا بأبشع الطرق فما بالك بخداعهم، أنت كتبت في الجزء المكتوب بخط أبيض من الورقة – الذي مسح بعد قراءتها بقليل – أن هناك أملًا ضعيفًا لأن ننجو، أتمنى أن يسطع هذا الأمل الضعيف في أجسادنا وأن تظل الحياة تتدفق إلينا ولا نموت.

- أتمني أن لايحمل الموت معه الكثير من الألم

قالها شوقي ولا تزال نظراته تتعلق بالدماء الملتحمة مع لون الكرسي الأصفر.

- اوه نسيت شيء كلفتني به أيضًا، هناك شيء صغير جدًّا يحقن تحت الجلد، قلت لي إنه لتتبُّع أثرنا ومعرفة مكاننا بعد أن ننقل إلى المنظمة والشخص الذي سيستقبل إشارات تلك الأجهزة سيكون شخصًا تثق به .

قال شوقي وبدا على وجهه الاهتمام :

- لم أقل لك عن اسم هذا الشخص ؟!

- لا، قلت إنك تثق به فقط.

أنهى مارك كلماته الأخيرة وهمَّ بوضع شيء غريب يشبه المحقن - إلى حد ما- على كتف شوقي الأيمن، ضغط على مؤخرة المحقن بقوة، تباينت على شوقي ملامح الألم، لكنه تماسك وأمسك شوقي بالمحقن وهو يثبته على كتف مارك، ومارك يقول له :

- ضغطة واحدة قوية ويستقر هذا الجهاز تحت جلدي.

فُتِحَ باب المنزل بعنف شديد، أدرك شوقي ومارك أنهم وصلوا، فُتح باب الغرفة – التي يجلسان بها – بهدوء استقبلهم شوقي بابتسامة خاضعة مستسلمة.

(٣٥)

في هذه الغرفة من المنظمة سيكون هناك حوار هام بين شوقي والشخص الذي اختاره المسئول للتأكد أن شوقي لا يخبئ شيئًا آخر، وسيحمل الحديث الكثير من المفاجآت كالمفاجآت التي يحملها الموت للعاصي، ولكي أكون منصفًا بينهم أنا – الطيف الزائر للمشهد الذي يصف لك مايراه ويسمعه ويشعر به – يجب أن يكون الحديث من وجهة نظر الجانبين بكل ما تحمله من تفكير وشعور ومشاعر متراكمة عبر الزمن، لنبدأ من هذا الرجل الذي ينتظر شوقي ..

****

أغبياء.. جميع البشر أغبياء لا يعرفون قيمة التحكم، لأنهم المتحكَّم بهم، أن تحمل مصير ملايين البشر بين ثنايا عقلك، أن تلوِّن الحقيقة باللون الذي تريده أن يروه، أن تطلو الكذبة بالشكل الذي يحلو لك، إنه أمر ممتع، خارج فقاعة الملذات التي يعرفونها، أغبياء عن جدارة منذ فجر التاريخ وهم يدعون أمور حياتهم بين قرارات وصراعات بين الطبقات الحاكمة وبعضها. قبل أن أعمل هنا كنت أخرج عن دائرة المحكومين وأرى المشهد كاملًا وأتساءل: مالذي يجبر الشعوب على حرب

غير الدفاع عن أرضهم وغير الدفاع عن الآخر!! مالذي يجعله يقتل ويسفك الدماء وينفّذ أوامر ترفضها إنسانيته وتنازعه في أعماقه حتى يرجع عنها.. ولا يرجع ويفعلها، أليسوا أغبياء، أخبرني أحد الخمسة المسئولين اليوم أن شوقي قادم ويجب أن أعرف أن كان يخبئ شيئًا آخر عنا أم لا، وبعدها أقتله بالفلوجكافين، لماذا اختاروني؟! لأنهم أذكياء وأنتم أغبياء.

****

أول ما اقتحموا المنزل، ارتجفت يدي وأنا أحقن مارك لينغرس الجهاز – المتتبع للحركة – داخل كتفه ويستوطنه، شعرت بخطواتهم تقترب إلينا، ولكن سمعت صوتها بعيدًا، فالخيال التحم بعقلي مكونًا عالمًا من التصورات باختلافها قاسية، بمجرد أن يُفتَح باب الغرفة سينفتح باب هذا العالم، ولكن في الواقع، بدأ باب غرفتنا يُفتح ببطءٍ، ظننت أني غرست الجهاز في كتف مارك ولكني لم أفعل من رهبة تصورات عقلي، رميت المحقن – وأنا جالس – لخارج الشرفة لتعبرها وتسقط وتُحطَّم، لم يروني وأنا أحقنه أو وأنا أرميها لذلك لن يعرفوا هوية ما مغروس بكتفي، الآن هم أمامي أربعة رجال ملثمين مقبلين علينا بهدوء، أحسست برجفة تسري بجسد مارك رغم تصلُّب ملامحه، اتسعت ابتسامتي لا أعرف لماذا، يمكن أن تأتي الابتسامة في الوقت الخطأ ولكنها لن تفقدني شيئًا، عصبوا أعيننا بشريط أسود، شعرت بأيادٍ متصلة بأجساد ذات أرواح مهترئة تحاوطني، وتنزل بي بهدوء على سلالم المبنى، ركبنا السيارة بنفس وتيرة الهدوء وحقنت بمخدر وظل ظلام مفتقرًا للوعي، بعد مدة لا أعرف مدي ثُقلها في اليوم بدأ الوعي

يتدفق لي رويدًا رويدًا وأنا أسمع همسًا بجانبي، وأشعر بضغط جوي ليس بغريب أستطيع أن أميزه وأستنتج أني في طائرة، أحسست ببعض الإلكترونيات تنساب تدريجيًّا على جسدي، مرت بقدمي إلى كتفي عندها سمعت صفيرًا متقطعًا خافتًا أشبه بدقات قلب رتيبة، أخذ الوعي ينساب منِّي بعدما شعرت بنصل بارد يخترق كتفي وينتزع جزءًا منه ليس بصغير، لقد اكتشفوا جهاز التتبع، أعتقد أن ألم النصل تكفَّل بفقداني الوعي مرة ثانية.. تمامًا .

****

أُدخل شوقي مكتبي في المنظمة وظلَّ يحدق بأركان الغرفة باندهاش، كنت جالسًا على مكتبي فجلس على الكرسي المقابل، نظر إليَّ، لم يعرفني فالإضاءة في الغرفة كانت تضفي نوعًا من الغموض على شخصيتي؛ حيث كانت تضيئ المكتب بلون باهت أصفر دون أن تُظهر وجهي، كأن الضوء يسير من باب الغرفة إلى منتصف المكتب – المربع الشكل – ينقطع كأنه يقع في ثقب أسود لا محال للهروب منه، فكان مايستطيع أن يراه منِّي، يديَّ المفرودتين على المكتب متشابكتي الأصابع، أول ما أفاق من حالة الشرود سأل عن مارك، قلت إنه في غرفة أخرى آمنًا سالمًا، كان هناك سيل من الأسئلة يغتال تفكيره، ولكنه نظر خلفي ليمعن النظر في اللوحة – الجزء الوحيد المُضاء بعد المكتب – أصابته حالة من الذهول، فلم يصدق أن هذه اللوحة هي التي توجد في فيلته في مصر.

****

مشهد سابق :

كانت اللوحة غريبة المعنى أو غيرت مفهومة بالنسبة لي، فهي لشخص يقف في شرفة وزواية التي رسم بها رأسي كأنها صورة التقطها أحد يقف في الشرفة التي فوقه، ممدّد اليد بحيث تظهر يده أنها تمسك بسيارة ما في الشارع، والطقس في الشارع شتاء فالثلج يغطيه كما ترى، وسيارات مركونة أخرى باختلافها؛ فتوجد عربة للبيع وسيارة أجرة وشرطة وإسعاف، هل فهم أحدكم مغزى اللوحة ؟! في الحقيقة أنا لم أفهم.

****

أشار إليها صامتًا فقلت له :

- اللوحة هذه هي التي تمثل كل فرد يعمل هنا، فهي كما ترى لشخص عادي ببذلة عادية، يراه البشر من الأسفل، شخص يقف في الشرفة لا يمثل نوعًا من التميز، ولكن المنظمة هي من ترينا صورتنا بالأعلى، فنرى أننا نتحكم في الأشخاص والبلدان كما نريد، وتعدد صور التحكم من خلال السيارات المختلفة المرسومة، والثلج المنهمر على الأرض الموكل من الشتاء لينوب عنه في فصله، يعبّر عما يجب أن نكون من شعور بارد، لا يحمل دفء الرحمة والعطف والنزعة الإنسانية.

بدأ يستوعب لذلك سأل مستفسرًا :

- ولماذا هذه اللوحة عندي ؟!

صمت لبرهة وقال بتردد مشوب بالخوف :

- هل كنت أحد أفراد منظمتكم اللعينة ؟!

ابتسمت ولكنه لم يرَ ابتسامتي، فقلت :

- لا، كنت ستكون ولكن بعد ماحدث أعتقد لن يفعلوا ذلك بكل تأكيد.

هاجمني بسؤال حاد النبرة :

- وماذا تريدوا منّي الآن ؟!

- أنا كُلفت بأن أستجوبك لأعرف إن كنت تخفي شيئًا آخر عنّا أم لا ؟!

- وكيف لي أن أعرف، أنا إنسان مشوَّه الذاكرة لا أعرف إلا ما أتعثر به من معلومات ألتقطها لإسعاف ذاكرتي، ولو كنت أخفي شيئًا عنكم فابالتأكيد سوف أحاول إذاعته في العلن، أتعجب منكم كثيرًا، طبيب مثلي يخدعكم أنتم المسيطرون على العالم أجمع.. شيء عجيب، ألا ترى هذا معي؟

عرفت مايرمي إليه، يريد أن يوقن أن هذا ليس فخًّا آخر له مثل القرية، فقلت :

- أتعرف أن أكثر من نخاف منهم هم الناس المهمشين، طفلة تركد في شارع تمر من أمام سيارتنا لتنفيذ أمر ما فتنحرف أو تصدمها سيارتنا فيخرج الأمر عن السيطرة، أو شحاذ يوقف شخصًا منا فيزيد من ثُقل حركته لتنفيذ أمر ما، وأشياء بسيطة لا حصر لها يمكن أن تصنع فجوة في خططتنا؛ لهذا نخاف منهم ونضع لهم ألف حساب أكثر من عمالقة الدول.

سألني سؤالًا مباغتًا نوعًا ما:

- لماذا تعمل هنا ؟!

- شهوة السيطرة والتحكم، أنت لا تعرف شيئًا عن هذه اللذة الرائعة، أن تسيطر على مصير مئات الملايين من البشر، ولو بشيء بسيط جدًّا هذا يعني لك الكثير، يعني لك أنك فوق البشر، أتعرف.. أني في بعض الأوقات أحسد الله، له قدرة خارقة على خلق الكائنات وتحديد مصيرها بدقة متناهية دون غلطة وبحكمة إلهية لا وصف لها، إنه أمر يفوق لذة المال والجنس، لذلك نحن فوق البشر لأننا فوق لذّاتهم البالية، نحن ما فوق الدول كما ذكرتنا.

- ومنظمة ما فوق الدول تريد أن تعرف إن كنت أخبئ عنهم شيئًا أم لا، أتصدق هذا يشعرني بالفخر لحد الغرور، إنه أمر رائع

وابتسم وقال :

لذة لم تعرفها أنت ولا منظمتك.

****

الصمت يغلف الغرفة لمدة طويلة حتى أزاح الشخص الذي يحقق معي الغلاف قائلًا :

- ألا يذكرك هذا الوجه المشوَّه بشيء ؟!

قرَّب وجهه باتجاهي أكثر حتى دلف في حيز الضوء فبانت ملامحه المشوهة التي تبدو كأنها محروقة منذ زمن بعيد.. ماذا يقصد بهذا

السؤال وبجعلي أراه ؟!.. ظللت أُحدق في الرجل كثيرًا، وهذا السؤال يفتح أبواب عقلي ليجد الإجابة.. أيمكن ما أفكر فيه ؟! لا يصدق ذلك..

قطع حبل أفكاري قيام الرجل من خلف مكتبه.. رمقته في شكٍّ مقترن بالحيرة والرجل يرمقني في ثبات وثقة، ثم قام، خطى خطوات قليلة حتى جلس على الكرسي المقابل لي.. وبثقة وضع ساق على ساق وقال ضاربًا حيرتي في مقتل :

- ما تفكر به صحيح.. منذ زمن لم نرَ بعضنا.. ولكن ملامحك تغيرت كثيرًا وأنا ظلت ملامحي مشوَّهة على رغم عشرات العمليات التجملية التي أجريتها.

تملكت ملامح الصدمة والفزع وجهي حتى قُلت بصوت لا يخلو من التردد:

- أأنت.. أأنت أبي ؟!

- نعم أنا أبوك..

وفتح ذراعيه وابتسامة تتعلق بشفتيه تحمل من المعاني الكثير فسقطت مستسلمًا بين أحضانه المتدفقة لروحي بحنان افتقدته طوال سنوات عمري، بكيت بانهمار سُحب أفقٍ مسَّه الضر من مما يحمل من أمطار معبئة دفينة بأعماقه الرقيقة، حتى انتهيت من دموعي الموسمية، وأبي يربت على كتفي، نظرت في عينيه أبحث وهو

يبحث عما افتقدناه من شعور منذ زمن بعيد، وبعد فترة ليست بالقليلة طردت طيف الصمت المتجول بيننا حتى قُلت:

- لكن أنت كيف نجوت ؟!

- إنها قصة طويلة يا ولدي لا وقت لسماعها لأنك ستموت الآن.

قالها أبي بتلقائية تحمل من الجدية كل معاني القسوة، صُدمت من جملته، إن الجملة نفسها شنيعة.. أب يقتل ابنه لماذا ؟! كان هذا السؤال يهشم عقلي بمطرقة كبيرة ويقطع بسواطه ما تبقى لي من مشاعر:

- أوافق على أن يغزو الألم جسدي.. ولكن أن يأتي لي بالحقيقة كاملة لا نصفها..

- حسنًا اتفقنا.. اسمع حكايتي وأعِدّ للألم مكانًا يليق به في جسدك

(٣٦)

" بعد الحادثة التي قلبت حياتنا الطبيعية رأسًا على عقب، نُقِلنا إلى المستشفى ومعنا أشخاص كثيرون أصيبوا مثلنا على الطريق من الانفجار.

كان عدد الوفيات أكثر من المصابين، ومن حسن حظكم أن إصابتكم لم تكن بالغة لكني أصبت بحروق حادة في الرأس والصدر، تم حسبي من ضمن الوفيات وأنا في الحقيقة أبحر في غيبوبة عميقة، ولكني لم أُبعَث إلى مقابرنا بل بعثنا مدير المستشفي أنا والكثير من الجثث إلى مقابر لا تمتّ للخير بصلة، فإنهم سيبعون جثثنا لحارس المقابر – التي لا أعرفها – ليستفيد منها بأي طريقة سواء حارس المقبرة أو غيره بيعنا وبيع أعضائنا ليقللوا عدد القتلى عندما تأتي الصحافة ليكون موقف الوزراء أقل حدة وهجومًا، وبالفعل تكومنا في سيارة نقل كبيرة، وأنا بدأت أفيق، بسرعة نضجت الأفكار في إناء رأسي عن مكان تواجدي ولماذا.. فنبشت في الكفن وأنا فيه حتى استطعت أن أخرج رأسي، ورائحة الموت تحاوطني من كل حد وصوب، إنه عَطنُ الأرواح التي فرت

بعد تحلل أجسادها، توقفت السيارة فجأة يبدو أنهم شعروا بحركتي بالخلف فهمَّ أحدهم بالصعود إلى أعلى المقطورة ووقف على الجثث باحتراس حتى لا يفسد اللوحة الفنية المرسومة بألوان الأموات من تحته وما لبس أن لمحني أنظر إليه بوجهي المشوّه حتى سقط بين الأموات حدق بي في فزع ورعب حتى ساعده على الوقوف رجل صعد لنا لتوه ونظر لي بغير مبالاة وهو ينفث سيجاره، وقال وهو يمشي على الجثث كأنه وسط حشائش حديقة الفسطاط :

- أنت قلبك خفيف إلى أقصى حد يا سيد، إنه شخص يتشبث بالحياة بعد أن كتب له في تقرير المستشفى متوفٍّ، ونحن لا نفهم أكثر من الحكومة.

فأخرج مطواه واتجه بها صوبي وفي عينه يتوارى الموت ملوّحًا لي بابتسامة خبيثة أفزعتني بشدة، أغمضت عيني مستسلمًا لقدري فأسفلي أكثر طينة خصبة للهلاك، أسفلي الموت نفسه.

- انهض.

فتحت عيني رأيت الرجل الأول الذي عرفت اسمه من الحديث " سيد " يمد لي يده.. نهضت ورأيت الرجل الثاني متكومًا وسط الجثث ولمعان المطواة يزين صدره، وقال لي سيد بابتسامة رضا تعلقت بشفتيه :

- كان يستحق الموت بجدارة، سيفعل بجثته مثلما يفعل في جثث من وقعوا تحت جشعه وطمعه، اهرب أنت وارجع إلى أهلك، وأنا سأسلم جثته مكان جثتك ويكون العدد كاملًا هكذا، سأعطيك ملابسه وأكفنه

بكفنك، وأعطيك من المال ما يعيدك إلى بيتك في أي وسيلة مواصلات تستوقفها ويفيض.

فعلًا أعطاني المال والملابس وكوفية لأخفي ما أستطيع من وجهي المشوَّه حتى لا يخاف منِّي أي سائق.. نزلت من السيارة وانطلقت إلى حيث لا أعلم.. وقفت أشاور على الطريق بغير إجابة من أي أحد لمدة ليست بالقليلة، ولكن وقف سواق مقطورة كبيرة واستقلني إلى أن وصلت لبيتي بلا أموال، وأنا أصعد إلى دور الذي توجد به شقتنا تخيلت أني أحتضن زوجتي وتذوب على صدري من البكاء وابني يترك لعبه ليأتي إليَّ ويحتضني هو الآخر.. ولكن لما وقفت أمام الباب وفتحت لي زوجتي تحطمت كل آمالي وأحلامي؛ إذ قامت بإنكاري ودفعي من على الباب وهددتني إن لم أرحل ستبلغ الشرطة، أغلقت الباب بوجهي وكل ماتبقي منِّي وجه مشوه ينكره الجميع وأوراقه تقول إنه متوفٍّ.. ما أسوأ من هذا !! نزلت وأنا أقسم أني لن اعود إلى هنا مجددًا، وجدت سائق المقطورة لا يزال ينتظرني كما هو ركبت معه ثانية وأنا أترك الحياة تتدفعني إلى القِبلة التي تريد.. قال لي السائق الذي عرفت اسمه مؤخرًا " علي" إنه يعمل عند رجل طيب -على حسب قوله-، ويمكن أن يتكفل بمصاريف علاجي ويوفر لي عملًا أيضًا، وفعلًا وصلنا إلى فيلا الرجل، وما إن سمع حكايتي حتى توعَّد بما توقعه علي من كرمه، شهور مرت وأنا أتلقى العلاج على نفقته، وبعد علاجي عملت معه في شريكاته المتعلقة بالاستيراد والتصدير، خاصة أني كنت أعمل قبل الحادث مدير علاقات عامة بإحدي الشركات التي لم تعِ أنت على اسمها، المهم، تقربت من الرجل أكثر وخاصة أنه لم ينجب وزوجته

تركته بسبب ذلك واعتبرني ابنه وأوكل إليَّ كل شيء، ومات، بعد سنين معدودة مات الرجل، وأمسكت أنا بزمام أمور الشركات التي ورثتها بعد ماكتبها إليَّ، وتعدو الأحداث في سنوات عمري حتى أصبحت هنا، وأعتقد أن ما عرفته كافٍ جدًّا "

أنهى والدي سرده لسنوات حياته بدوننا سريعًا، أحسست بشيء ناقص ومفقتر يجب أن أعرفه :

- لكني أريد أن أعرف كيف وصلت إلى هذه المنظمة؟! أنت وعدتني أن تخبرني الحقيقة كاملة.

- أنت طلبت أن تعرف كيف نجوت، لا ماذا فعلت بعد ما نجوت، ولكي أريحك قبل موتك، سأخبرك بشيء..

صمت برهة وأكمل:

- كل ما حدث لي لم يكن عشوائيًّا بل هي سلسالًا من الأحداث المتشابكة لتصنع طريقًا ممهدًا لي إلى تلك المنظمة، لذلك لم أكرهك أو أكره والدتك، لأني أعرف أنها تلقت تهديدات كثيرة لتتجنبني للأبد، وهذا الأمر ينطبق أيضًا على نور حبيبتك حيث أنهم أيضًا كانوا يرودونك أن تنضم إليهم، فموت والدها كان لعدم انصياعه للتهديدات بأن يُبعد ابنته عنك، ولذلك فضلت نور الهجرة خوفًا على والدتها، لذلك أقول لك لا تظلمها أبدًا، فهي مجبرة على ذلك، ليت الله يجمع بينكما في الجنة .

****

انتهى حديثي، وانتهت آخر أوقاتي مع ابني شوقي، أعرف أنه يستنكر ذلك، أعرف أنه سيلعنني آلاف المرات في أعماقه، ولكني أحميه من ألمٍ عظيمٍ، الفلوجكافين الذي نصنعه الآن يصل لذروة الألم البشري، أضعاف آلام الرجل الذي رآه يُحقَن به عند "عمار عامر"، مهما طال الزمن سيقتل به، وأنا لا أريد أن يتذوق ابني هذا الألم اللعين أبدًا؛ لذلك رجعت للمكتب وأخرجت مسدسًا من أحد أدراجه، نظرت له كملك الموت عندما أشفق على الصغير بعد ما انتزع روح أمه، ابتسم لي بسمة تمنيت ألا يضيئها بوجه، ووقف أمامي فاتحًا ذراعيه مرحِّبًا لنيراني، وأغمض عينه، فقلت له وأنا أرفع المسدس تجاهه:

- سامحني يابني، سامحني .

****

أخرَج أبي مسدسًا من درج ما بمكتبه، عرفت ما أنا مقدم عليه، الموت، كنت غير مصدِّق لهذا الأمر في البداية وأستنكره بشدة، ولكن أرى في عينيه بريقًا لا يوجد بعينيْ قاتل رأيت وكأنه كتب على صفحات عينيه أنه يحميني من شيء أصعب وأشد قسوة من رصاص مسدسه، لذلك وقفت أمامه فاتحًا ذراعيَّ مستسلمًا لقدري، طالما حلمت أن

أموت وأنا مبتسم لذلك تركت ابتسامتي ترتسم على وجهي وأغمضت عينيَّ، سمعته وهو يقول:

- سامحني يابني، سامحني .

انطلق صوت أعيرة النيران تشق أُفق الصمت.. الأولى، فالثانية، فالثالثة، تراجعت للوراء خطوة عشوائية، توقعت أن تخترق الرصاصات الباردة صدري، ولكني لا أشعر بشيء سوى الخوف الذي يضرم النيران في طيات عقلي، هناك شعور بالألم مُفتقَر بهذه اللحظة، فتحت عيني لأرى دماء أبي مسكوبة على الأرض، سمعت جلبة وضوضاء بجانبي، لكن نظراتي جذبت كل حواسي لتشاهد جثة أبي الهامدة التي تتسرب منها روحه، ارتطم بي جسد مارك بقوة فسقطنا أنا وهو أرضًا، فرأيت عند باب المكتب أشخاصًا حاملين أسلحة آلية، بالطبع هم من قتلوا أبي، ضرب أحدهم رأس مارك بمؤخرة سلاحه، وهمَّ ليضربني فسقطت بلا حراك وبدأت الأصوات تخفت تدريجيًا، ولكن سمعت أحدهم يقول :

- لا تقتلوهم، لازلنا نريد منهم شيئًا.

الفصل الخامس: الصندوق النحاس

(١١ عام لنمنعهم من السلم أو الحرب، فالأول يعني خراب والثاني يعني هلاك)

(٣٧)

" حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم شوقي محمد نجيب محمد بالإعدام شنقًا نظرًا لما أنسب إليه من تهم قتل الدكتور رامي فؤاد حسن مدير مستشفى (رامي فؤاد الخاصة) والرائد عصام ثروت محسن.. رُفِعَت الجلسة "

وسط تهليلات وتكبيرات الجموع في قاعة المحمكة تبادل شوقي ابتسامة مع أحد الحاضرين في القاعة وانصرف الرجل ببذلته المنمقة، وعلى باب القاعة وقف رجل يمسك بكاميرا ينظر إلى شوقي بشكٍّ وريبة، ولكن لحظة.. حدِّق معي داخل القفص.. هذا ليس شوقي.. من هذا؟!

(٣٨)

منزل شوقي ..

ترى شوقي الآن نائمًا على فراشه ويبحر في نومٍ عميق لا يحرّك ساكنًا.. لا، لن أقول لك إن كل ما حدث مجرد حلم، فأنا أعرف مدى التحول الاخلاقي الذي بدأ معك من نهاية قصة "مغامرات في أعماق البحار"

كل شيء يثبت كلامي

الجروح ..

الكدمات ..

قطعة اللحم الناقصة في جسد شوقي مثل قطعة بازل (puzzle) ضائعة..

مارك الذي يجثم فوق فراش في الغرفة المجاورة له..

رزمة الأوراق البيضاء المنظمة..

وأخيرًا آلاف الدولارات التي سينقب عنها شوقي في أرضية منزله إلى أن يجدها بعد أن يفيق

لن أطيل عليك في التفاصيل.

فقد أفاق شوقي ومارك في وقت واحد كأنهما يمتلكان ساعة بيلوجية واحدة

بسرعة نضجت الأفكار في رأسيهما والذاكرة أسعفتهما بكل ما تملكه، عرفا أن مهمتهما لم تنتهِ وأنهما يجب أن يبدآ بأمرين

الأول: توثيق ما عرفاه عن المنظومة من البداية للنهاية.

والثاني هو: الصندوق النحاسي.

أخذ شوقي رزمة الأوراق والأقلام من على مكتبه، والصندوق النحاسي، واتجه هو ومارك إلى قبره مرة أخرى.

بعد اقتلاع قطعة من أرضية المنزل لأخذ الدولارات مثلما ذكرنا منذ سطور.

كان الاتفاق بينه وبين عم صلاح –حارس المقابر– سهلًا وهو معه آلاف الدولارات، وأعطي شوقي لعم صلاح قائمة بطعام وشراب أغليهم معلب ليبتاعه من أي " سوبر ماركت " فهمَّ وأحضرهم بعد أن استقر – شوقي ومارك – في قبر شوقي الذي تفاجآ أن وجداه مزودًا بكثير من منافذ التهوية والمصابيح وبعض الأشياء القطنية ليرتاحا عليها.

كان كل شيء مجهزًا وممهدًا لهما بتخطيط جهنمي من شوقي – قبل فقده الذاكرة –

"أتحبان أن تضاجعا فتيات من عالم الموتى؟!"

قالها عم صلاح لهما بلا مقدمات وبابتسامة خبيثة معلنًا عن دنوٍّ نفسي، وضميرٍ متحلل منذ زمن سحيق، قال له شوقي بنظرة موجهة أسهم احتقار له:

- لا، فنحن لسنا مرضى بال " نيكروفيليا " ولم نأتِ لنضاجع ضمائرنا وندنّس حرمة الموتي كما تفعل أنت، لا تُخرِج من فمك أي اقتراح أو حتى كلام بدون أن نأمر لك بذلك، مفهوم؟!

أومأ برأسه بأنه تفهَّم، وانصرف ونظرات عينيه تدفن في التراب، ليس خجلًا من سؤاله لا بل من خيبة أمله بأن يكتسب زبونًا جديدًا لهذه اللذات الحقيرة.

لمن منكم لايعرف " النيكروفيليا": هو مرض أو اضطراب نفسي يؤدي بصاحبه في النهاية إلى مضاجعة أموات، وذلك لأسباب كثيرة منها ضعف الشخصية والبحث عن شخصٍ تفعل به ما تشاء دون أن يعترض ويقاوم، والكثير والكثير من الأسباب، لكن لا وقت لنا لنتعمق في تفاصيله.

مرت أربعة أيام وهم موجودان في القبر، ينامان ساعات قليلة.. حاولا أن يفهما سر الصندوق النحاسي ولكنهما لم يستطعا فانهمك شوقي

يكتب - ويعاونه مارك - ما عرفاه وما يجب أن يعرفه البشر، وما كان يعلم أن ما خفي كان أعظم بكثيرٍ، ولكنه قريب جدًّا سيعرف..

كتب أكثر من ١٠٠ صفحة عن تجربته من أول ما استفاق في المستشفى إلى وجوده في القبر الآن.

****

في غرفة صلاح العتيقة وقف يتحدث مع رجل ببذلة راقية والرجل يعنفه بشدة حتى سمعا صوت جسد يهوى على الأرض بشدة، وجد صلاح فتاة جاثمة على الأرض يبدو أنها سقطت في عيبوبة ما.. حاول أن يفيقها ولكن بلا جدوى، كان سيهرع إلى الطبيب، ولكن أوقفه الرجل الذي معه وهو ينظر للفتاة بنظرة يكاد أن يبتلعها بها، فهم صلاح مايريد فقال له:

-لكننا لازلنا في الصباح، وهي ليست من الموتى، وأنت لا تضاجع إلا المو...

قاطعه الرجل بحدة :

- هذه رغبتي أنا وأنت تطيعها، ليس لك إلا المال فقط.

وقف يفكر قليلًا حتى سطعت فكرة ما في عقله :

- أوافق ولكن هناك شيئًا بسيط ستأمر بها رجالك بعدها.

- ما هو ؟!

****

بعد أكثر من ساعة لمراجعة الأحداث المكتوبة على رزمة الأوراق ..

فجأة تدحرجت فتاة من على سلم القبر، أسرع – شوقي ومارك - بسرعة ليساعداها وهي على الأرض مغمضة العينين، وبعد تفحُّص سريع لنبضاتها،قال شوقي :

- جسدها ساخن جدًّا، لكنها مازالت حية ويبدو أنها تغرق في غيبوبة الآن.

- هناك دماء تنبعث من أسفلها كأنها...

وأكمل مارك بنظرة أسى إليها :

- كأنها اُغتصبت.

أفاقت الفتاة وهي تصرخ وتضرب بيدها الهواء بعشوائية.

- لا تخافي.. لا تخافي، ما الذي حدث، ومن هوى بكِ إلى هذا القبر؟!

نظرت الفتاة إليهما في هدوء وبدأت تتذكر، ثم ضمت يديها محاوطة صدرها وهي تبكي وتصرخ.

- مارك أحضِر لها ماء لتهدأ قليًلا وشنطة الإسعافات الأولية.

ضجيج خارج القبر، نظرا لبعضهما بغير حراك.

صوت الباب يُفتح بعنف، هناك جمع من الناس يصوبون نظراتهم المشتعلة بدماء الفتاة، صاح أحدهم قائلًا:

- ها هم من اغتصبوا صباح وقتلوها.

(٣٩)

قبلها بدقائق تجمَّع حشد من الناس يتقدمهم عم صلاح – حارس المقبرة – ورجلان في الجمع يحملون أسلحة نارية يحكي أحدهم للأخر عن الذي حدث :

- سمع عم صلاح صراخ أنثوي من أحد مقابر العائلات، أخرج مفاتيحه ليتفحص أمر القبر، ولكنه لم يجد المفتاح الخاص به، تصنت على الأصوات بداخله وسمع أحدهم يقول "سنتخلص من صباح بعد ما أخذنا منها ما نحتاج "، فجاء لعائلة صباح وقال لهم أن هناك من يلوّث شرفهم، بصياح النساء وعويلهم تجمعنا هنا كلنا لننقذها ونثأر لها مما فعلوا بها هؤلاء النجساء

- ولاد الكلب، لا بد أن نذيقهم العذاب ليكونوا عِبرة لمن لا يعتبر.

- هذا إن لم يموتوا تحت أرجل هذا الحشد.

أسرعت سيارة زرقاء اللون بالخروج من المقابر، كادت أن تصدم الكثير من الناس.

- لولا أننا على مشارف القبر الآن لهرولت إلى السيارة تلك وهويت عليها لأحطمها، يعاملوننا كأننا موتى لا قيمة لنا، نحن أحياء نسكن في المقابر لسنا أمواتًا مثل من بداخلها.

بدأ الجمع يفتح باب القبر بعنفٍ وتدافُع وفُتح بسرعة، ثم صاح أحدهم..

- ها هم من اغتصبوا صباح وقتلوها..

انهال الجمع – بأيديهم - على شوقي ومارك بالضرب، وأمسكت النساء بصباح للاطمئنان عليها

حتي صاحت صباح بكل ما تملك من قوة :

- ليس هما.. اتركوهما.

توقف الجمع عن كل شيء وأحاطهم الصمت بغموضه، ظلوا محدقين فيها منتظرين أن تكمل :

- عم صلاح هو من فعل بي هذا .

أصابت نظرات الجمع عم صلاح باسمهم حيرة ممتزجة بالغضب، فسألها أحدهم :

- كيف وعم صلاح هو من اخبرنا لانقاذك ؟!

شهقت في أسى وضجر :

- كنت عائدة من العمل منذ ساعات، أحسست أن أعراض السكر تهجم على جسدي بشراسة، كنت قريبة من بيت عم صلاح لا أعرف متى جاءتني غيبوبة السكر، ولكني شعرت بأن جسدي ارتطم بالأرض ولم أشعر بعدها بشيء، بدأت أستفيق بصعوبة، وأنا ممدة على فراش عم صلاح ودخل عليَّ شخص ببذلة لم أرَه من قبل وجردني من ملابسي و.. و.. وهتك عرضي، وأنا لم أتحمل ما أنا فيه ووقعت في الغيبوبة مرة أخرى، شعرت أني أُحمَل لسيارة، ولكني سمعت عم صلاح يقول للرجل وهو يعطيه النقود " القبر الذي وصفته لك في مدافن عائلة نجيب" وانطلقا لهناك وفتحا القبر بمفتاحه ووضعاني على سلم القبر وبعدها استفقت جيدًا وأمامي هذان يحاولان إسعافي ثم أتيتم أنتم.

مع آخر كلمة قالتها انقض الجمع بأكمله -حتى النساء- على صلاح وحملوا صباح، وتركوا شوقي ومارك غير خاليين من كدماتهما،

نظرا لبعضهما في بلاهة، وجمعا الأوراق والصندوق النحاسي واتفقا على أن يذهبا لفندق ويبحثا عن طريقة ينشرا من خلالها هذه الأوراق، ويكون همهما الشاغل بعد ذلك هو الصندوق النحاسي.

أحس شوقي أن هاتفه يهتز، أخرجه من جيبه، وجد أن هناك ثلاث مكالمات فائتة، واتصل الرقم – الغير مُسجل باسم - من جديد، رد شوقي:

- ألو، الدكتور شوقي نجيب.

- نعم، من ؟!

- معك الصحفي نائل فخرالدين، كنت قد أجريت معك مقابلة منذ أشهر لأنشر فيه حالات الشيء النفسي الذي أسميته "تحقيق الموتى" أتتذكرني ؟!

لم يهتم شوقي ولا يريد أن يفتح موضوع تحقيق الموتى من جديد،

- أتذكرك، ولكني لا أريد أن أتكلم بخصوص هذا الموضوع و...

قاطعه نائل:

- أنا لا أريد إجراء عمل صحفي، أنا أريدك لشيء يعني حياتك أو مماتك.. أريد مقابلتك الآن لا وقت صدقني.

تردد شوقي قبل أن يقول :

- أنا الآن في فندق، أتستطيع أن تأتي لي ؟

- أعطني العنوان حالاً.

(٤٠)

- انظر لذلك الخبر

أعطى نائل -الصحفي- لشوقي جريدة وشاور على خبر عليه دائرة حمراء وبجانبه مارك يتفحص معه الخبر، نظرا الاثنان وملامح الحيرة والخوف ترتسم على وجهيما، قال نائل مفسرًا :

- كتبت هذا الخبر بنفسي، وكنت حاضرًا بنفسي المحاكمة وصورت هذه الصورة المنشورة أيضًا، لم أفهم أي شيء ولكني ربطت مابين فشلك في نشر هذا الشئ النفسي في العالم رغم أهميته، وبين استبدال أحد غيرك في محاكمة باسمك وشخصيتك في قتل اثنين، ولذلك لم أقل إن من يحاكم ليس أنت ولم أنشر اكتشافك في سطور الخبر خوفًا على نفسي، لماذا يا دكتور شوقي حدث هذا ومن الذي فعله؟!

لم يستطع شوقي أن يتكلم وهو يرى خبر أنه كان في محاكمة انتهت بقرار إعدامه، قال مارك مجاوبًا على سؤال نائل:

- إنهم يريديون أن ينهوا شخصية شوقي إلى الأبد، فإن ذهب لإثبات شخصيته وأن الذي سيعدم ليس شوقي الحقيقي سيعدمونه بدلًا منه، وإن صمت فلن تكون له شخصية وأوراق يعيش بها، لقد حاصروك يا صديقي.

سأل نائل:

- من هم؟!

قال شوقي خارجًا عن صمته :

- لا نستطيع أن نكمل الكلام في صالة الفندق، فلنصعد لغرفتنا.

(٤١)

بعد ساعتين من سرد تلخيصي لما مرَّ بشوقي قال نائل :

- من الجيد أنكما أقمتما في فندق عادي كهذا لا يطلب الكثير من الأوراق وإلا ببحثٍ بسيط على بيانات شوقي لأصبح الأمر سيئًا للغاية.

أكمل نائل مردفًا:

- لكن الأمر كبير إلى أقصى حد، تصورت في البداية أن هناك شخصية كبيرة في البلد بينك وبينه عداء، لكن منظومة سرية منذ مئات السنين تتحكم في العالم ويقتلون من يقف في طريقهم بالذي يسمي "الفلوجكافين " هذا، إنه أمر لا يخص شخصًا أو حتى بلدًا بأكملها، إن الأمر يخص العالم بأسرِه.

- كيف وصلت لرقم هاتف شوقي ولماذا في هذا الوقت بالتحديد؟!

قالها مارك بنظرات متشككة لنائل حتى جاوب نائل بهدوء :

- أعرف أن مامررتم به يجعلكم تشكون بأي أحدٍ يقترب منكم ولكني سأريحك، منذ فترة بدأ موضوع إعدام شوقي الذي أعرف أنه مزيف يستنزف تفكير عقلي كثيرًا، بل وأحلم به وأشعر أن أحدًا يهمس لي باسمك دائمًا لا أعرف كيف.. استمر الأمر أكثر من أسبوعين، ظننت أن ذلك من تأنيب ضميري لي؛ خاصة وأن شوقي المزيف أُعدِم منذ يومين، تحديت خوفي وقررت أن أبحث عن الكارت الخاص بك الذي أعطيته لي – منذ شهور - واتصل بك.. هذا ما حدث.

تفهما روايته ولكنهما لا تزال خيانة يوسف لهما تعصف بكل ثقة لأي شخص آخر.

- الصندوق النحاسي.. ألم تستطيعا أن تفهما ما به؟!

أثار ذلك شكوك شوقي ومارك، ولكن شوقي أحضره له وقال :

- لم نستطع أن نعرف سره إلى الآن.

أمسك نائل بالصندوق وهو يتفصحه بعينه حتى سأل مستفسرًا :

- قاع الصندوق هل بحثتم فيه؟!

- نعم بل انتزعناه من الصندوق ظنًا منا أنه يحوي شيئًا، ولكننا لم نجد شيئًا وألصقناه بالصندوق مرة أخرى.

ضرب نائل بعنفٍ قاع الصندوق حتى وقع وانفصل عن الصندوق.

أمسكه بيده وأوقعه بعنفٍ من جديد، ظل يمسكه وويهوى به في الأرض ثماني مرات.

ظهرت طبقة من النحاس برأس القاع كأنها تحررت بفعل هذه الصدمات التي تلقَّاها من الأرض عند الاصطدام بها.

كانت طبقة رقيقة استطاع أن ينتزعها نائل بيده، وجد بداخلها ورقة تبدو عتيقة إلى أقصى حد، نظر فيها ولو قلنا أن ملامحه امتزجت فيها كل المشاعر المخيفة من الفزع والهلع لما كفى.

يلهث..

العرق ينصب من جبينه..

عيناه جاحظتان ..

يرتعش بعنف ..

يحس بالظمأ الشديد ..

قال هو يلهث كأنه في سباق للفوز بحياته :

- هذا.. هذا طلسم

حدق شوقي ومارك إليه بخوف شديد ينقض على روحهما بشدة :

- اهدأ يا نائل حتى لو كان هذا طلسما لا يستوجب كل هذا الفزع.

قال هو يلهث ويلوح بيده نافيًا:

- لا والله.. لا والله.. هذا ليس طلسمًا عاديا.... إن الأمر كبير ياشوقي أكبر مما نتوقع .... والله الأمر كبير جدًّا صدقوني.

سرت رعشة سريعة كأنها تنتقل بينهم، اهتز المكان للحظات يتبادل فيها النور والظلام مكانهما معًا في الغرفة للحظات.

عادت الغرفة لطبيعتها، وأجسادهم خالية من أي رعشة تسري فيها.

نزلت دمعتان ساخنتان على وجه نائل، صاح فيهما:

- يجب أن نذهب إلى عمي.. والله الخطر يتخطى حدود عالمنا.

(٤٢)

نزلوا من الفندق ..

استقلوا سيارة نائل .. جلس مارك على كرسي القيادة وانطلق..

ركب نائل في الخلف وهو يحدق في الفراغ ويعطي تعليماته من حين لآخر لمارك ليصل إلى بيت عمه الذي وصفه بكلمة لخّصت التجائه به " دجال"شوقي يجلس بجانب مارك وأمسك بالورقة التي فزع نائل من مجرد رؤيتها.

ظن شوقي أنه سيصيبه حالة الفزع الهستيرية التي أصابت نائل، لكنه لم يصبه شيء بل نظر إليها كأي ورقة عادية، مكتوبة كالطلاسم بالفعل وتختلف عن الطلاسم التي قابلها طوال حياته – المزيف منها والحقيقي – واختلافها مخيف حقًّا لكن لا تستحق هذا الفزع الهستيري.

لحظة واحدة.. هناك شيء غريب، لا أستطيع قراءتها..

بالطبع لم أقرأ أي طلسم من قبل؛ لأن حروفها متصلة ببعضها، ولكن كنت أستطيع أن أقرأ حروفها واحدًا تلو الآخر وتصبح في النهاية كلمة ليس لها معنى لكن هذه لا أستطيع معرفة حروفها، باختصار تستطيع أن تراها في الشكل العالم لكن أن تختص كلمة وتحاول أن تقرأها كأنك لم تعرف شيئًا عن القراءة يومًا، شيء مفزع حقًّا.

- عند هذا البيت المتجمع حوله الناس.

قالها نائل لمارك وهو يشير إلى بيت عمه.

نزلوا بسرعة – ومعهم الورقة - دخلوا من بين الناس بسلاسة أوقفهم الرجل الذي ينظم الدخول والخروخ.

- انتظر يا نائل عند شيخنا حالة يعالجها.

- خذ هذه واصمت أنت.

أعطاه خمسين جنيهًا دخل هو وشوقي ومارك إليه، من حُسن الحظ أن الحالة التي حكى عنها الرجل بالخارج تنصرف الآن، قال الرجل بنظرة لائمة لنائل :

- ماذا أتى بك إلى هنا، ألا تخاف أن تدنس رجليك بالقدوم إلى دجال!!

- لا وقت لأي لوم أو عتاب، معي ورقة تحوي طلسمًا خطيرًا لأقصى حد.

- أعطني إياها.

سحب نائل الورقة من يد شوقي وأعطاها لعمه، تباينت نفس ملامح الفزع عليه، ولكن هذه المرة ارتج المكان بعنفٍ شديدٍ..

احتل اللون الأبيض عيني الدجال بالكامل..

يهتز جسده بقوة ..

كأن شيئًا خفيًّا ارتطم به.. كاد أن يسقط من مجلسه ولكنه تماسك..

ابتسم بثقة ..

صوت رياح بسيط ..

انطفأت الشموع وحلَّ الظلام ..

عيناه كانتا تتوهجان في الظلام ببياضهما المفزع ..

توقف الاهتزاز الذي كان يحتل الغرفة.. وشرع الدجال بالحديث بصوت غليظ

ليس له:

- أعيدوا الورقة مكانها، أعيدوها وأعدكم بالموت والراحة، إن لم تفعلوا بما نأمر فلكم العذاب الأبدي الداخلي، فلكم العذاب الأبدي

الداخلي.. إنسان شيطان جان.. إنسان شيطان جان.. إنسان شيطان جان

اهتز المكان بعنفٍ..

تراجع الجميع إلى الباب، لا يوجد باب.. بل لا توجد غرفة

مكان مظلم تغزو البرودة فيه كل أركانه

الصراخ يملئ المكان ..

ظلال تتحرك متوهجة في الظلام ..

صوت غليظ ينبعث من فم الدجال كأنه بوق..

المكان يغرق في بحر من الصرخات المزلزلة ..

كأن جيشًا من الصرخات غادر قلاع حنجرته، ما إن أفسح فمُه له المجال حتى احتل أركان الغرفة وهاجم أذنهم من كل حدب وصوب.

جثموا على سيقانهم مغمضين أعينهم صامين آذانهم..

- ماذا أتى بك إلى هنا، ألا تخاف أن تدنس رجليك بالقدوم إلى دجال !!

فتحوا أعينهم وجدوا أنفسهم في الغرفة بطبيعتها والدجال أمامهم بهيئته العادية، نظروا لبعضهم وهرعوا إلى الخارج بسرعة.

(٤٣)

- حاااااااااااااااسب !!

صرخ بها الثلاثة وهم في السيارة، ليحذر الرجل الذي وقف فجأة أمامهم.

توقفت السيارة في آخر لحظة قبل الاصطدام بالرجل الذي كان ينظر إليهم بثبات وثقة غير مناسبين للموقف، نزلوا مشيرين بأياديهم في انفعال يصرخون في وجهه أن السيارة كادت أن تنقلب من قوة وقوفها فجأة.

صمتوا جميعًا بعدما قال لهم:

- إن كنتم تريدون أن تعرفوا سر الورقة التي معكم فاتبعوني.

ثم هرول وركب سيارة كانت تنتظره وانطلق، لم يجدوا حلًّا أمامهم سوى ذلك فركبوا سيارتهم وتتبعوه.

بعد ثلاث ساعات وصلوا إلى فيلا في الطريق الصحراوي. نزلوا ودخلوا الفيلا ولاحظ الجميع أنها كلها باللون الأصفر.. شيء غريب، ولكنه ليس مفزعًا.

دلفوا إلى غرفة كبيرة ومعهم الرجل الذي يلبس جلبابًا أسود كبيرًا ووشاحًا وعمامة سوداء تعطيه هيبة مع ذقنه البيضاء الخفيفة.

- تفضلوا بالجلوس.

أشار إليهم بالجلوس على ثلاثة كراسي وكرسيه أمامهم وكرسي بجانبه.

يفصل بينهم شيء دائري كبير يستخدم لإشعال النيران بها.

الغرفة لم تكن مريبة أو ترتبك عندما تدخلها، كانت عادية بتستثناء اللون الأصفر الأقرب للنحاس الذي يضيف إليها نوعًا من الهيبة المريحة.

- أقدم لكم نفسي: أنا معاذ، لقبي يختلف عليه الناس، البعض يقول دجالًا والبعض الآخر يقول وليًّا من أولياء الله، والبعض يقول مجنونًا، نادوني كما تحبون؛ لأننا سنطيل الإقامة معًا، ولكني أحب لقب وسيط .

سأل شوقي بتلقائية :

- وسيط ؟!

- نعم وسيط، وسيط بين عالميْ الجن والإنس، أنا موجود في البرزخ الذي بينهما، وأنا أعرف ما سر الورقة التي معكم.

- قُل لنا إذًا.

- أعطني الورقة أولا.

نظروا لبعضهم في تردد، ولكن هم موجدون في بيته ورجاله بالخارج لو أراد سرقتها لانتزعها منهم منذ اللحظة الأولى؛ لذلك أعطاه شوقي الورقة.

نظر إليها بثقة وهدوء محاوِلًا التغلب على أعماقه الخائفة بقوة،سأل معاذ بلهجة هادئة :

- كيف وجدتوها ؟!

- في صندوق نحاسي

- جيد فالنحاس يحمي الأشياء من الجان.

- كيف ؟!

- النحاس يردّ حواس وإدراك الجان فلا يعرف ما بداخلها، كأنه رادار يلتقط كل إشعارات الأشياء عدا النحاس لا يراه.

قال مارك لشوقي :

- لهذا قُلت لي أن أصنع القبو بمنزلي من النحاس.

استغرب شوقي معرفته مسبقًا بهذه المعلومة يبدو أنه يعرف الكثير سابقًا لدرجة تخيفه من القادم. قطع معاذ تفكير شوقي متسائلًا :

- أكانت في الصندوق نفسه أم هناك لغز ما فيه؟!

- كانت في قاعه هويت بها ثماني مرات على الأرض حتى طبقة خفيفة من النحاس انتزعتها ووجدنا الورقة،

قال شوقي مقاطعًا نائل:

- لا كانت تسع مرات، أنسيت المرة الأولى التي ضربتها وسقطت بقوة على الأرض.

قال معاذ :

- اممم، رقم ٩ يبدو أنه يدل على شيء وليس رقمًا عشوائيًا.

سأل نائل مستفسرًا :

- ألم تقل إنك تعرف سر الورقة لماذا تتفحصها وتسأل؟!

ابتسم بثقة وقال:

- عندي من ينبئكم بالسر وهو من بعثني لأحضركم هنا.

- من ؟!

اشتعلت النيران فجأة في الشيء الدائري الذي يفصل بينهما، ورما معاذ الورقة في النار بلا مبالاة، صرخ الجميع بوجهه، ولكن أخرسهم مشهد الورقة في النار، ظلوا محدقين في الورقة بغير فهم:

- نعم، ألم تعرفوا أن الورقة تطفو على النار ولا تحرقها.

قالها معاذ مفسرًا

فالورقة تطفو على النار المشتعلة كسفينة تحملها المياه بدون أن تتأثر بأي شيء.

- أرجوك أخبرنا، نحن لا طاقة لنا لنتحمل مفاجآت أخرى.

- لحظات ويحضر

نظروا الجميع لبعضهم وبراكين الخوف تكاد أن تنفجر بداخلهم

- من ؟!

- ابن أحد ملوك الجان

انفجرت براكين الخوف تهلك مشاعرهم :

"كيف حالكم؟!"

جاء هذا الصوت من مكان ما في الغرفة، حتى دخل شخص ما حيز النور

جلس بجانب معاذ وابتسامة تتعلق بشفتيه، أكمل مردفًا:

- أنا هرطائيل، ابن أحد ملوك وقادة الجان

نظروا مفزوعين بسبب كلماته، محدقين في شكله العادي البشري، ويلبس قميصًا أسود وسروال قماش أسود.

- بالطبع لن اجعلكم تروني بشكلي الحقيقي؛ لأنه مفزع بالنسبة لكم، لا تخافوا أنا لا أتبع المنظمة أو أي من الممالك الثلاث، سأحكي لكم حكاية بسيطة، باختصار أرجو أن تفتحوا أدمغتكم لاستقبال باقي الحقائق، والمهمة التي سنفعلها معًا.

بنبرة هادئة نوعًا ما بدأ يحكي:

" هذه الورقة هي عهد بين ثلاث ممالك في عالمنا وعالمكم، الجن.

والإنس، مملكة البشر، مملكة الجن، مملكة الشياطين، هذا العقد به طلسم يجدد العقد بينهم كل فترة من العقود يجب أن تتوافر ثلاثة أشياء أساسية في تجديد العهد، اولها حضور تسعة أشخاص من الثلاث ممالك ينقسمون كالتالي:

خمسة من مملكة البشر، ثلاثة من ملوك الجن الذين في المملكة، وشيطان واحد يقال إنه خادم إبليس الشخصي، يقفون على نجمة ترسم بالدماء، وأطراف النجمة تسعة، يقف عليها كل فرد من التسعة أفراد ويتلون الطلسم.

ثاني شيء هو وجود الورقة نفسها في منتصف الدائرة، بدونها يكون العهد ملغيًا، إذا جاء وقت التجديد ولم تكن موجودة حتى لو كانوا يحفظون الطلسم، الشيء الثالث هو قربان كبير من البشر يقدم لمملكة الجن والشياطين، مثال بسيط على القربان الذي يقدم، قربان

مثل الذي كان في عهد "فلاد الواشي" الملقَّب بـ "فلاد المخزِوق" كان ينفِّذ جملة من الإعدامات بحق بشر أبرياء وصلت لعشرات الآلاف من البشر وكان يخدع الشخص قبل أن يعدمه بأنه إذا تلى طلسمًا معينًا سيطلق صراحه فيقول أحدهم الطلسم فيصبح دمه قربانًا لمملكتيْ الجن والشياطين، ويقتل بعد ذلك. هذا غير الكثير والكثير من القرابين على مدار أكثر من ألف عامٍ من هذا العهد، تقديم القربان يتوجب قراءة الضحية للطلسم ثم قتله فقط، وهذا الذي لم يتواجد في الحرب العالمية الأولى والثانية إلا قليلًا جدًّا؛ لذلك لم يجدد العهد سنوات كثيرة برغم ملايين القتلى الذين ماتوا،

مافائدة الممالك من هذا العهد، أولًا مملكة البشر لكي تحكم العالم وتسيطر عليه يجب أن تملك قدرات خارقة أقلها التنصت ومعرفة الأخبار وأسرار غير القوى الممكنة لصنع أي حدث.

ممكلة الجن ومملكة الشياطين تتلخص فائدتهما في تقديم القرابين لهم وبطقوس معينة؛ يعطي هذا قوة للسيطرة أكثر على قبائل ومعاشر كثيرة ليحكموا عالمنا، تقريبًا نفس أسباب ممكلة البشر، ولكن بطريقة مختلفة، باختصار: ممالك ثلاثة يتحكمون في حياة البشر والجن ويصنعون من بعضهم قرابين ليسيطروا على الباقي، أستطيع أن أسمع سؤالك يا نائل؛ لماذا بالرغم من أنني من عالم الجن وابن أحد ملوك الجن أقول لكم ذلك؟

باختصار أيضًا مملكة الجن كانت سرية لمئات السنين لكنها كشفت منذ عقود ولأنها ممالك تقوت بدم البشر أصبحت أقوى من معاشر

الجن جميعم، وقد عقد عهد بين معاشر وقبائل الجن أن أمر المملكة يصبح سريًّا بينهم ولا يُنقَل لعالم البشر، وإلا تركوا قبيلة مَن أخبر البشر بذلك، فريسة للمملكة بدون تدخُّل حتى يفنى كل أفرادها، لذلك لم يكن بوسعي أن أخبر أي بشري بذلك، وكنت أراقب كل بشري يحاول أن يصل لمملكة البشر ويعرف بعد ذلك أن هناك مملكة للجن والشياطين أيضًا؛ وهذا ما حدث مع شوقي؛ ولذلك كلفت قوة من خدّامي أن يحموه طوال الوقت، وأنا من استجوبت قرين المسئول عن حماية الورقة في ممكلة البشر وسرقتها وتركتها لشوقي وهو لا يعرفها ولا يعرف من أين أتت. ولما لم يستطع حلها وضعها في الصندوق النحاسي الذي وجدتماه فيه.

سأجيب عن سؤالك أيضًا يا شوقي، ما مهتكم في هذا كله؟!

علينا أن نمنع العهد من أن يتجدد، وهذا معناه هلاكهم أجمعين، ولكن المشكلة أنهم لن يموتوا دون أن يتركوا الخراب في العالمين؛ لذلك سنحاول ردعهم وإنهاءهم قبل أن يفكروا في خراب العالمين، والخطر الأعظم الحقيقي أن يتقاتلوا من أجل سيادة أحدهم على الآخر، وهذا يدل عليه بعض العداء الذي بدأ يطفو بين مملكة الشياطين ومملكة البشر، والذي تقف فيه مملكة الجن مع البشر؛ لأنهم هم من يزودونهم بالقرابين، فتخيل إن كان سلامهم يتسبب في موت ملايين البشر، فماذا عن عدائهم !! "

قاطعه شوقي بعدما هدأ الخوف منه وأقام مكانه فزِعًا بداخله من تلك المعلومات:

- متي سيجدد هذا العهد ؟!

ابتسم هرطائيل وبنظرة لائمة قال لشوقي:

"إنني أستطيع قراءة أفكارك فلا تقاطعني بعد ذلك، سأجيبك لأنك لك عندي مَعزَّة خاصة. بعد أحد عشر عامًا سيُجدَّد العهد والخوف في عدائهم في هذا التوقيت فيخلف مئات الملايين من الضحايا سواء البشرية كقرابين أو الجن من القبائل المستضعفة والتي ستُجَرّ للحرب "

أكمل مردفًا:

" أحد عشر عامًا لنمنعهم من السِّلم أو الحرب، فالأول يعني خرابًا والثاني يعني هلاكًا، ولكن يجب أن نعرف ماذا ينوون أن يجرّوا العالم إليه بعد أحد عشر عامًا، أعرف جيدًا أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولكن يجب أن نجد طريقة نعلم بها هذا بدون أن نتدخل في غيب الله ونكفر بذلك.. أوه صحيح نسيت أن أقول لكم أنني من الجن المسلم ومعي بعض العشائر من الجن المسيحي واليهودي الذين يرفضون التدخل في عالم البشر وتحكُّم ممكلة الجن بهم، والكثير من العشائر الأخرى باختلاف دياناتهم، ولكن الكل يخاف من قوتهم الجبارة. وأرجوكم أن تبعدوا تلك الصورة عن أدمغتكم، إننا كائنات تعيش على دماء البشر وتتلذذ بقتلهم وإرعابهم، لا لا، نحن مثلكم تمامًا نعيش ونؤمن بالله ونأكل ونشرب ونحب ونتزوج، ولكن الأفراد أو العشائر التي تدخل بعالمكم مثل الدجالين الذي يتدخلون لعالمنا أيضًا ويستخدمون القرابين البشرية كاقوة بطقوسٍ معينة ليس بطبيعة وفطرة غرست

فيهم، مثل عندكم، يستعينون بنا في العمال الخارقة عندكم ولا نستطيع أن نمس بشريًّا مادام لم يدخل لعالمنا بطلسم ما، المهم الآن نريد أن نحدد أهدافنا وكيفية الوصول إليها "

تطوع الوسيط بأن أعاد إليهم هدفهم من جديد أمامهم :

- أن تمنعوهم من السلم والحرب.

- نعم، علينا أن نمنعهم من السلم والحرب هذا هو هدفنا الأكبر، نستخلص من هذا الهدف عدة عناصر وأهداف يجب تحقيقها:

أولًا: ورقة التجديد يجب أن نترجمها لكي نعرف سر كل حرف بها وهي بالمناسبة مكتوبة بلغتهم الخاصة التي لا توجد لها ترجمة معروفة.

ثانيًا: إخفاء الورقة عن الممالك الثلاث طوال الإحدى عشرة سنة القادمة.

ثالثًا: معرفة مكان منظمة البشر لكي نستطيع أن نمنعهم من تقديم قرابين من البشر تتقوى بها مملكة الجان على عالمنا وتستمر في السيطرة على مصيرنا.

رابعًا: معرفة خطة مملكة البشر لتقديم القربان البشري القادم الذي سيعني الهلاك لكِلا العالمين.

- أعرف أن ما أقوله صعب جدًّا، ولكن يجب أن نجد سبيلًا لكل هدف.

لم ينطق الجميع بكلمة، ولكن نظر هرطائيل إلى نائل الذي يبدو أنه يستغرق في التفكير في طريقة ما:

- أفكارك عشوائية يانائل لا أستطيع قراءتها جيدًا، هل عندك شيء تفيدنا به؟

- نعم بل عندي شخص يمكنه أن يفيدنا في ذلك بدون الحاجة لمعرفة خطتهم في السنوات القادمة، شخص يبدو كمجنون ولكنه قد يفي بالغرض.

- من هو وماذا سيفعل ؟!

- سأخبركم ..

(٤٤)

سنستقبل الأحداث أحد عشر عامًا لنوصف المشهد يوم التجديد بالتحديد ..

لا أحد في كوكب الأرض يعرف كيف جرت الأحداث عليه بهذه السرعة والدقة، الجوع والجهل والكذب والفساد والسرقة والقتل والحروب الطائفية والقبلية انتشرت تنهش في إنسانية البشر في كل مكان..

في ميعاد تجديد العهد بين الثلاث ممالك بعد ‘حدى عشرة سنة من الآن ..

وقف جيشان يحاصران أوروبا – التي أوصدوها أمامهم بالأسوار شاهقة الارتفاع – من كل حدب وصوب.. أولهما يصل عدده إلى ٨٠٠ مليون مقاتل يقفون عند المغرب العربي لاقتحام أقرب نقطة اتصال بأوروبا: "جبل طارق"، يمسكون بالسيوف ويتقدمهم المنجانيق والعجلات الحربية ورماة الأسهم والحِراب كأنهم قادمون من مجاهل التاريخ القديم.. والجيش الثاني يصل

عدده إلى مليار و١٠٠ مليون مقاتل بنفس الأسلحة البدائية يقفون في الجانب الشرقي لأوروبا استعدادًا للهجوم.. أما جيش أوروبا فكان عدده ١٥٠ مليون مقاتل يتوزعون حول أوروبا ٥٠ مليون للتصدي للجيش القادم من إفريقيا و١٠٠ مليون للتصدي للجيش القادم من أسيا.. جيش قليل لكنه يملك من الأسحلة الحديثة مايفتك بمئات الآلاف من الجيشين دفعة واحدة دون أن يصل أحدهم لرقبة جندي أوروبي واحدٍ.

ما حدث منذ أن وقفنا إلى الآن؟! ما الذي أوصل البشر إلى هذا الحد في أحد عشر عامًا!!

نبدأ بالسنوات تصاعديًا بملخص كل منها سريعًا ..

منتصف العام الأول "نهاية العام الثاني":

انتشار إرهابي غير مسبوق في تاريخ البشرية تفجيرات تقدّرها الإحصائيات بأنها تحدث كل ١/٨ من الثانية ويقدَّر متوسط قتلى التفجيرات ١٤ شخصًا.. كل هذه التفجيرات في الشرق الأوسط وإفريقيا وبعض الدول في الأمريكتين وتكاد تنعدم في أوروبا.. وتقدَّر نسبة القتل تحت التعذيب في الهيئات الحكومية والخلايا الإرهابية بقتيل – تحت التعذيب – كل ٤٠ ثانية.. كل ذلك أدى إلى انتشار

المجاعات في الشرق الأوسط وافريقيا بشكل حاد وقاسي جدًّا ويموت شخص كل ١/٢٠ من الثانية

من أجل الحصول على سلعة غذائية.. غير الذين يموتون جوعًا، ورغم كل ذلك كانت نسبة المواليد في ارتفاع مستمر.

العام الثالث :

اتخذ حلف النيتو في أوروبا وبمشاركة بعض الدول في الأمريكتين..

بغزو الشرق الأوسط وإفريقيا لمحاربة الإرهاب، وبمساعدة حُكّام هذه الدول دخلوا بكل يسر البلاد، ولكن لا يخلو أي غزو من مقاومة شعبية ولكنها لم تستطع الصمود طويلًا أمام تقدمهم العسكري.. وصار العمل في منابع البترول على قدمٍ وساق، وبمساعدة القوات الأمنية في تأمينهم، وفي المقابل حفنة من المال.. لم يتحسن أي وضع في هذه البلاد بل صار أسوأ بكثير.. وارتفاع مستوى الجريمة بكل أشكالها "سرقة قتل اغتصاب تفجير، تعذيب" حتى صار بين العائلة الواحدة كل هذه الأشكال من الجريمة؛ فيغتصب الأخ زوجة أخيه، ويعذب الأب ابنه ويسرق الابن أمه ويقتلها إن رفضت وسقوط أحد الزوجين قتيلًا أو معاقًا في أي مشاجرة بينهما..

انعدام للأخلاق والدين أحاط هذه البقع من الأرض..

وأعمدة البترول مازالت تُنتهَك من قِبَل الغزو الخارجي.

بداية العام الرابع – نهاية العالم الخامس:

نفد البترول من الشرق الأوسط، وما تبقى منه في إفريقا مازال يُنهَب.. ولا يُعطَى البترول للعامة بل يُعطَى للطبقة الحاكمة والثرية الذي بنوا لأنفسهم مدنًا خاصة أحاطوها بأسوار تمنع الفقراء من الوصول إليهم..

الوضع مازال مستمرًا في الاستياء بين الفقراء؛استمر التخلف حتى القرن الخامس عشر، ووصل لكل ملامح الحياة فيه؛ عدا أن الناس في القرن الخامس عشر لم يكونوا بهذه الوحشية والانحطاط الإنساني، ووصل الجوع بهم إلى أكل الكلاب الضالة حتى انتهت.. والأغنياء وأوروبا بشكل عام ينعمون بالترف ويزدادون في تقدمهم في شتى المجالات. الشيء المشترك بينهم هو أن الجنس أصبح مباحًا أمام كل شخص مهما كان سِنُّه أو مركزه أو وضعه.

الاجتماعي: لذلك انتشر الإيدز بين الفقراء، ولكن المرضى أصبحوا يتأقلمون عليه لأنهم لا يملكون الدواء ولا يملكون شهواتهم التي قُتِلَت جوعًا وفقرًا..

العام السادس :

نفد البترول في العالم وأصبحت أوروبا تحتكر كل نقطة بترول في العالم، وبراميل البترول تنقسم في البلاد التي نهبت منها البترول تحت حراسة مُشددة أو في بلادهم هُم.. ولكن أهم شيء في هذا العام هو اكتشاف (البايرول)* اكتشفه عالم أمريكي وهو أفضل وأنقى من البترول آلاف المرات.. وأصبحت أوروبا تملك تحت أرضها أكبر مخزون في العالم من البايرول.. وقبل أن ينسحب الغزو من الشرق الأوسط

وإفريقيا نتيجة لاختفاء أهمية البترول.. أبرمت صفقتان جمعوا منهما ملايين التريليونات.. أولها كان مع الطبقة الحاكمة والثرية بعقد مئة عام لتصدير البايرول لهم.. والثانية مع الفقراء – بوساطة حكومية – بشراء البترول كله الذي نهبوه منهم، ولكن أبناء الطبقة الغنية لن يجعلوا الفقراء ينعمون بحياة أكثر ترفًا باستخدام السيارات وربما الطائرات؛ لذلك أغرقوا كل نهر تحت يد الفقراء بالبترول..

بلايين التريليونات من براميل البترول أغرقت مياه أنهار كثيرة منها نهر:(النيل – اليانجستي – الكونغو – النيجر – الفرات – سلوين)

وغيرها من الأنهار، وضرب الظمأ بلجامه كل الفقراء حتى كانت المياه سبب حروب كثيرة.. إنه عام أسود، ولكن هناك ما هو أشد سوادًا منه.

---

*(البايرول): الفكرة مقتبسة من رواية " يوتوبيا " لدكتور أحمد خالد توفيق.

العام السابع :

خريطة العالم ها هي أمامنا سنبدأ بقارة قارة لوصف الأوضاع كلها بعد كل ذلك ..

نبدأ بأوروبا والتي لونتها باللون الأخضر كما ترى، تنعم بمختلف وسائل الراحة والرفاهية، كل من دينه الثراء يسمح بالدخول إليها بعد تحويل أمواله إلى بنوكها وتتأكد أنه يملك من المال ما يكفيه لعشرات العقود

من الزمن، وتزيد انعزالًا ورفاهية عن العالم الخارجي الذي يُقطَّع من العطش والجوع والفقر.

ننتقل إلى قارتيْ إفريقيا وأسيا والتي لابد أن لاحظت أني لونتهما باللون الأحمر، ففيها كل ما يشتهي إبليس أن يرى وربما حمد البشر على أن هذا كله يحدث على بمنطقة شاسعة من كوكب الأرض دون أن يشقى في ذلك كثيرًا؛ فالقتلى تعفنت جثثهم بالشوارع وفي الأسواق، ترى معي بالتأكيد تلك الجموع من الناس والتي تتقاتل بعنف بالسيوف والأسلحة البيضاء والعصيان،

لا إنها ليست مظاهرة اشتبكت مع الأمن، فلا أظنها أن تكون بهذه الحدة المميته؛ فإنهم يتقاتلون من أجل دلو من الماء

التوأمان ..

الزوجان..

الأم والابن ..

في النهاية إنسان يقتل إنسانًا بلا أدنى رحمة، ودلو الماء يبتسم وينتشي بسبب تهافت البشر عليه إلى الموت

انتهى التقاتل ووقف رجل تملأه الجروح والسعادة تغمره يشرب الدلو بشراهة حتى أنهاه، وظل ينظر رافعًا رأسه منتصرًا على مئات القتلى من حوله الذين أنهى أملهم في الماء بل من الحياة كلها.

يكفي ذِكر هذا العراك البسيط واترك للجام خيالك أن ينطلق باحثًا في أحداث هذه البقعة من الأرض، ولكن قبل أن نترك الحديث عنها أذكرك أنهم: بلا كهرباء، بلا ماء، بلا طعام، بلا إنسانية.

وأن حياتهم أصبحت مثل الحياة في القرن الحادي عشر، ولكن الخيول والكلاب قد قتلهم الجوع بأفواه الجائعين وحركة الانتقال بين الدول شِبه المعدمة، وكل من ملته الجوع والفقر مرحَّبًا به هنا ولتقاتل كل يوم لأجل شربة ماء أو كلب ميت وجد هنا أو هناك ولتحيا الحياة هنا.

إلى الأمريكتين ووصف سريع لوضعهما، لونهما على الخريطة أمامنا بالبرتقالي لأني على حسب اعتقادي أنه يمكن وصفه أنه أقل حدة من اللون الأحمر، كل ما تخيلته في إفريقيا وأسيا يحدث هنا لكن أقل حدة بكثير منهما، ولكنهم في طريقهم لوضع اللون الأحمر.

أما قارة أستراليا تقل كل يوم حدة وتزدهر وتأخذ وضعًا وسطيًا بين كل قارات العالم مما يجعلها شاهدًا رائعًا ومؤرِّخًا صادقًا فيما بعد عن العالم؛ ولذلك تركت لونها على الخريطة كما هو، وهو اللون الأصفر.

العام الثامن :

أوروبا مازالت تنعم وتزدهر كل يوم بلا توقف ونظام حمايتهم أصبح أكثر قوة وصار متطورًا لأقصى حد.

أما الأمريكتاين أصبحتا أكثر حدة وعنفا وتدهورت حالتهما وكل يوم من سيء إلى أسوأ.

أما أستراليا فمازالت في موقعها الاجتماعي والاقتصادي والإنساني؛ في المتوسط.

ولا جديد عن قارتيْ إفريقيا وأسيا إلا أنهما قامتا بثورتين عشوائيتين ضد أوروبا، ومات عشرات الآلاف فيهما من جانبهما.

العام التاسع :

ظهرت مجموعات من الناس في كل قارات العالم، تقود العالم نحو السلام، ولكن السلام في كل بقعة من الأرض مختلف؛

فمثلًا أوروبا كان السلام بينهم بأن بالعماملات والقوانين الرادعة لأي أحد لا يحترم الآخر وبسرعة فائقة أصبحوا هذه المجموعات على رأس السلطة الحاكمة

أما في أسيا وإفريقيا فحلَّ السلام بينهمت بعد تقاتل مرير واتفقا على توزيع الثروات الباقية بالعدل والمياه؛ يقومون بتحلية مياه البحر وإذابة جليد القطب الجنوبي بالقدر الذي لا يفسد الطبيعة الجغرافية لكوكب الأرض، وإلى حدٍّ ما استطاعوا توفير الحاجات الأساسية ليبقى الإنسان على قيد الحياة، ولذلك صعدوا إلى رأس السلطة بلا أي انتخاب فهم اهتموا بهم وحلوا بعض مشاكلهم وهدأت وتيرة القتال بين الناس في الشوارع، ولكن كان ذلك السلام بينهم أما العداء كل العداء

لأوروبا، وكانت أبواب السلام هي التي ستؤدي إلى مفتاح باب الحرب.. قد يفتح الشيطان لك تسعة وتسعين بابًا من الخير ليدخلك لباب واحد من أبواب الشر

والأمريكتان كانتا لا تستمعان لأحد وظلَّ الصراع بينهما عنيف وكالعادة.

المجموعات المنادية بالسلام بعد فشله صعدوا إلى السلطة وقادوا الحروب

القبائلية بينهما.

أما أستراليا ظلَّ الحكام مثلما هم، والسلام بينهم دائم دون الحاجة للمجموعات تلك لذلك لم يتوجوا بالسلطة بها.

العام العاشر – منتصف العام الأحد عشر:

كل شيء كما هو في جميع القارات عدا قارتي آسيا وإفريقيا اللتين توحدتا، وصار التجهيز للحرب مع أوروبا والانتقام منها على قدم وساق.

موعد التجديد :

نعود إلى الحرب التي ذكرناها منذ صفحات..

تسمع معي الآن الجيوش - سواء في أوروبا أو أسيا أو إفريقيا - تتمتم بكلامٍ غريبٍ، كل قائد مجموعة يردد هذه الكلمات ويرددها وراءه المقاتلون بحماسٍ شديدٍ:

سننتقل بسرعة إلى عالم الجان بمساعدة هرطائيل وتحديدًا في المكان الذي وقف فيه جيشان متربصان ببعضهما، وجوههم وتكوين أجسادهم مرعبة ومفزعة؛ فالجانب الأول يتكون من معاشر الجان منهمن والجيش الثاني من الشياطين.. لعلك ترى هذه القلعة التي تبعد عن الجيش الأول مسافة آمنة، يقف فيها الخمسة مسئولين من المنظمة يراقبون الحرب باستمتاع ونشوة، وعلى مقربة من الجيش

الثاني، شيطان يجلس علي عرش عظيم التكوين لا أعرف كيف أصف ملامحه إن كانت سعيدة أو عابسة؛ فأنا لم أصف شياطين من قبل.. اللعنة.. البشر سيكونون قرابين لتقوية هذين الجيشين على بعضهما ليتغلب أحدهما على الآخر؛ لذلك كانوا يرددون هذه الكلمات الغريبة، إنه طلسم لجعل البشر المتقاتلين قوة لحربهم.

لا توقفوا، توقفوا أيها الحمقى ستهلِكون العالم، لا تقتلوا بعضكم أرجوكم لا مكان لنا في الأرض بعد استغلال دمائنا وانتزاع إنسانيتنا..

تربص من الجانبين ..

الأعين مشتعلة، والدماء في اشتياق للخروج من أجساد ممزقة ..

بدأت الأسلحة بعيدة المدى تصوب..

تضرب من الجانبين ..

ومع أول دماء بشرية سُفِكَت..

بدأت الحربان في الاشتعال .

تم الكتاب الأول بحمد الله.. ٢٨/١٠/٢٠١٤- الإسماعلية

يتبع في الكتاب الثاني من ثنائية (مافوق الدول)

للتواصل مع الكاتب

الفيس بوك : www.facebook.com/philosophyhassan